جورج أمادو

فارس الرمال

ترجمة محمد عيتاني

جورج أمادو

فارس الرمال

الى الاصدقاء
بدر

رسالة من السيد قاضي الأحداث
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

السيد مدير «صحيفة المساء» مدينة سلفادور، ولاية باهيا

مواطني العزيز
تحيات طيبة

اني لدى تصفحي صحيفتكم في احدى الهنيهات النادرة من الفراغ التي تتركها لي مشاغلي المتعددة والمتنوعة في وظيفتي المرهقة. اطلعت على رسالة من حضرة قائد شرطة الولاية الذي لا يكل في تقديم جهوده لخدمة العدالة وراحة المواطنين. ويعرب في رسالته هذه عن الدوافع التي لاجلها لم تتمكن الشرطة حتى هذا اليوم من تشديد الحملة القيمة ضد أولئك الأولاد الجانحين الذين يعيثون فساداً في مدينتنا ويشيعون فيها ما يشبه الوباء من الجرائم والارتكابات المختلفة. ويبرر السيد قائد الشرطة موقفه باعلانه بأنه لم يكن يملك أمراً من محكمة الاحداث لاجل القيام بعمل موجه ضد جرائم الأولاد وجنحهم. وأني، دون رغبة مني في أن اضع المسؤولية بأي حال من الاحوال على قيادة الشرطة الرائعة والتي لا تكل، أرى نفسي ملزماً، في صالح الحقيقة (هذه الحقيقة ذاتها التي نصبها كمنارة تضيء طريق حياتي بضوئها النقي جداً) بأن اعلن بأن العذر الذي ابداه قائد الشرطة غير صحيح. انه غير صحيح، يا سيدي المدير، لأنه لا يدخل في صلاحيات محكمة الاحداث مطاردة واعتقال الاحداث القصّر الجانحين، بل أن صلاحيتنا هي تعيين المكان الذي عليهم قضاء فترة عقوبتهم فيه، وتعيين قيّم لمتابعة أية محاكمة يقدمون اليها الخ. ولا تعود لصلاحية محكمة الاحداث القبض على الجانحين الصغار، بل أن صلاحيتها تقوم في السهر على مصيرهم اللاحق (أي بعد اعتقالهم اثر جرائمهم أو جنحهم). وإن على السيد قائد الشرطة أن ينتظر الالتقاء بي في المكان الذي يدعوني اليه الواجب ذلك لانني طوال خمسين عاماً من حياتي النقية الناصعة، لم

اتلكأ أو أتأخر أو اتردد في تنفيذ واجبي

كما أنني، خلال الاشهر الاخيرة المنصرمة، ارسلت إلى دار الاصلاحية عدة احداث جانحين أو متشردين. وليس خطأي اذا كان هؤلاء الأولاد الاشقياء يعرون وإذا لم يكونوا يستفيدون من ميادين العمل لتي يجدونها في هذه المؤسسة التربوية، وبالتالي فإنهم يبحثون عن جو يتمتعون فيه الامن والعمل، وحيث يعاملون بأكثر عطف. إنهم يفرون من الاصلاحية ويصبحون أكثر فساداً أيضاً، وكأن المثال الذي تلقوه كان سيئاً وضاراً. لماذا؟ إن هذه مشكلة يعود حلها إلى علماء النفس وليس إليّ الذي لست سوى فضولي صغير يهتم بالطلعة

وما أريد أن أجعله واضحاً كالبلور، هو أن السيد قائد الشرطة يستطيع الاعتماد على أفضل دعم من محكمة الاحداث لتشديد الحملة ضد الاحداث الجانحين أو المجرمين

أبدي لحضرة سعادتكم اعجابي وتقديري

قاضي الأحداث

(نشر في «صحيفة المساء» مع صورة لقاضي الأحداث وتعليق اطرائي صغير)

رسالة من أم «خياطة»
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

سيدي المحرر

اعذروني للاخطاء الاملائية والنحوية، نظراً لأنني غير معتادة على مسألة الكتابة، وإذا كنت اتوجه اليوم اليكم، فذلك لاجل وضع النقاط على الحروف. لقد رأيت في الصحيفة، مقالاً عن سرقات «فرسان الرمال»، واثر ذلك على الفور جاءت الشرطة لتعلن نبأها ساحقهم وحينئذ جاء السيد قاضي الاحداث ليذكر أن من سوء الحظ كثيراً أن هؤلاء الأولاد المعتقلين لا يصبحون افضل في الدار الاصلاحية التي كان يرسل اليها الاولاد المساكين. ولأجل الحديث عن دار الاصلاح المذكورة اكتب هذه السطور بخطي الرديء. واتمنى أن ترسل صحيفتكم اقدر محرريها ليرى الدار المذكورة ولكي يرى كيف يعامل أولاد الفقراء الذين شاء سوء حظهم أن يقعوا بين حراس تلك

الدار العديمي الروح والرحمة. لقد قضى ولدي البوس هناك ستة اشهر ولو لم اتدبر المسألة لاخراجه حياً من هذا الجحيم لست ادري ما إذا كان المسكين سيستطيع أن يعيش هناك ستة أشهر أخرى دون أن يموت. إن اقل ما يتعرض له أولادنا في تلك الدار الاصلاحية هو أن ينالوا ضربات تنزل بهم مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. إن مدير ذلك المكان يقضي حياته في شرب الخمر إلى حد أنه يتدحرج على الارض وهو يحب أن يرى السوط يلعلع على جسد اولادنا. وقد رأيت هذا المشهد مراراً عديدة، لانهم لا يهتمون بنا. وهم يقولون انهم يفعلون ذلك لتربية الولد بالمثل الصالح. لهذا أخرجت ولدي من هناك. وإذا أرسلت صحيفتكم إلى هناك شخصاً بالسر، فسوف يستطيع أن يرى نوعية الغذاء الذي يناله المساجين الصغار، والعمل العبودي الذي يرغمون على القيام به، وليرى كيف أن رجلاً مكتمل الرجولة لا يستطيع احتمال الضربات وأعمال السخرة التي تصيب الاطفال. ولكن لاجل رؤية هذه المشاهد، يجب أن يذهب أحد محرريكم إلى هناك بصورة سرية وإلا إذا علم المسؤولون عن السجن بوجود مندوب صحفي فإنهم سيظهرون المكان وكأنه جنة مشرعة الابواب للنعيم. اذهبوا إلى هناك فوراً وسترون من الذي يقول الحق. ولأجل هذه الاشياء، وغيرها أيضاً يوجد «فرسان الرمال». وأفضل أن أرى ولدي بينهم، على رؤيته في تلك الدار الاصلاحية الدائمة الصمت. وإذا اردتم رؤية شيء، اذهبوا إلى هناك. وكذلك، اذا كنتم تريدون، تستطيعون التحدث مع الاب جوزيه بيدرو الذي كان كاهناً هناك، ورأى كل ما تحدثت عنه. وهو يستطيع أيضاً أن يروي ذلك وبعبارات افضل، لست املكها.

ماريا ريشاردينا ـ خياطة

(نشر في الصفحة الخامسة من «صحيفة المساء» بين اعلانات، وبدون صورة ولا تعليق)

رسالة من الأب جوزيه بيدرو
إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد مدير تحرير « صحيفة المساء »
تحيات على اسم يسوع المسيح

قرأت في صحيفتكم ذات الشهرة الكبيرة رسالة ماريا ريشارديتا التي تذكر في نصفي شاهداً قادراً على تقديم ايضاحات حول حقيقة حياة الاولاد المحبوسين في « الدار الاصلاحية » وأنا مضطر للخروج من الظلام الذي اعيش فيه، لأقول لكم بأنه، لسوء الحظ، ان ماريا ريشارديتا هي على حق، إن الاولاد في الدار الاصلاحية موضوع احداث يعاملون كما تعامل الوحوش الضارية، هذه هي الحقيقة. لقد نسي درس السيد محرر اللطيف جداً. وبدلاً من كسب ود الاولاد، بطرائق طيبة. فإن المسؤولين يجعلونهم اكثر تمرداً، بعمليات ضرب متواصلة، وعقوبات حديدية. عن اسبابه. وقد منعت من زيارة تلك الدار الاصلاحية لاحمل إلى الاولاد تعزيات الدين، وقد وجدتهم قليلي الاستعداد لتقبلها. وذلك طبعاً نتيجة للبغضاء التي تتراكم في هذه القلوب الغضة. احدثوني كثيراً بالشفقة وإن ما رأيته هناك، يا سيدي المدير، يمكن أن يقدم محتوى كتاب كامل. مع الامتنان الكبير لانتباهكم من خادم المسيح

الآب جوزيه بيدرو

(رسالة نشرت في الصفحة الثالثة من « صحيفة المساء » تحت عنوان « هل هذا صحيح؟ » وبدون تعليق).

رسالة من مدير الدار الاصلاحية
إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد رئيس تحرير « صحيفة المساء »
تحياتي
لقد تتبعت باهتمام كبير الحملة التي تشنها الصحيفة اللامعة في باهيا، هذه الصحيفة

التي تديرونها بذكاء قوي جداً، ضد الجرائم المفزعة لـ « فرسان الرمال » وهي عصابة من الاولاد الجانحين والمجرمين التي تخيف المدينة وتمنعها من العيش باطمئنان. وعلى هذا النحو قرأت رسالتي اتهام ضد المؤسسة التي أديرها، والذي يمنعني التواضع، والذي صنع وحده حضرة السيد المدير، من أن أصفها بـ « النموذجية ». وبالنسبة للرسالة التي وجهتها امرأة طيبة من الشعب، فلست اهتم البتة بها فهي لا تستحق أن أرد عليها ولا شك. وهي احدى النساء الكثيرات جداً اللواتي يأتين ويردن الحيلولة دون تحقيق لدار الاصلاحية للمهمة المقدسة لتربية أولادهن. وهن يربينهن في الشارع. وفي الوحل. وحين يخضع هؤلاء الاولاد عندنا لحياة نموذجية، فإن هؤلاء النساء، هن أول من يشتكي في حين أن عليهن أن يقبلن أيدي الذين يصنعون من أولادهن رجالاً جديرين وهن يأتين منذ ذي بدء تطلبن الحصول على مكان لأولادهن وإثر ذلك تنتقل الهم وهم يشتقن أيضاً إلى نتاج السرقات الذي كان الاولاد يحضرونه إلى البيت وينتهي بهن الأمر إلى الاحتجاج ضد الدار الاصلاحية ولكن كما سبق لي القول، سيدي المدير، فإن هذه الرسالة لم تثر اهتمامي، انها ليست من امرأة صحة من الشعب، التي ستفهم العمل الذي احققه، على رأس هذه المؤسسة، وإن ما أثار ارتياعي، يا سيدي المدير، هو رسالة الاب جوزيه بيدرو، رجل الدين هذا الذي ينسى وظائف رسالته، وينطلق بالهجوم ضد المؤسسة التي أديرها، موجهاً اليها اتهامات خطيرة. ان هذا الكاهن (الذي اسميه كاهن الشيطان، إن سمحت لي بمزحة صغيرة يا سيدي المدير) والذي استغل وظيفته للدخول الى مؤسستنا التربوية في أوقات ممنوعة في النظام الخاص بهذه المؤسسة، ولدي ضده شكوى جدية، أريد أن اسمعها. لقد حرض الاولاد القاصرين الذين عهدت الدولة بهم اليّ، على التمرد والعصيان. ومنذ أن دخل إلى هذه الدار ازدادت حالات التمرد ومخالفة الانظمة. إن الكاهن موضوع الحديث ليس سوى محرض، ذي طبع سيء شرير. يقوم بتحريض الأولاد القاصرين الموضوعين تحت حراستي. ولأجل هذا، أريد أن أمنعه من الدخول إلى دارنا الاصلاحية.

ومهما يكن يا سيدي المدير، فإنني انسى حساني كلمات الحياطة التي كتبت إلى هذه الصحيفة. وأنا الذي اطلب اليكم أن ترسلوا محرراً إلى « الدار الاصلاحية » واني اعتبر هذه مسألة تخصني شخصياً، وسيكون في وسعكم على هذا النحو، ومعكم جمهور القراء أن تحصلوا على معرفة دقيقة وصادقة وثقة حقيقية حول كيف يعامل الاولاد القاصرون الذين تتجدد نفسانيتهم ويحققون التحسن في الدار الاصلاحية للأولاد

تحت ضوء القمر
في مستودع قديم مهجور

المستودع

تحت ضوء القمر . في مستودع قديم مهجور ، كان الأولاد نائمين

في الماضي كان هنا البحر وعلى الحجارة الكبيرة السوداء لأسس المستودع ، كانت الامواج تتحطم تارة في دوي وطوراً تأتي لتضرب الحجارة بلطف. وكان الماء يمر من تحت الجسر ، الذي يرقد تحته الآن أولاد عديدون ، تضيئهم خصلة صفراء من ضوء القمر ومن هذا الجسر ، خرجت سفن شراعية لا تحصى ، مع شحناتها وكان بعض هذه السفن هائلة الضخامة ، مدهونة بالوان عجيبة ، تمضي إلى مغامرات الاجتيازات البحرية وهنا كانت تأتي السفن لملء عنابرها السفلى ، والرسو تحت الجسر ذي الألواح المتآكلة اليوم في الساحل . أمام المستودع ، كان يمتد سحر البحر الاوقيانوسي ، وكانت الليالي امامه خضراء معتمة ، شبه سوداء ، بهذا اللون الغامض السحري الذي هو لون البحر في الليل .

واليوم يرى الليل صيراً تجاه المستودع ، وذلك لأنه تجاه الليل تمتد الآن رمال أرصفة المرفأ وتحت الجسر ، لم يعد هناك هدير للأمواج لقد اجتاحت الرمال كل شيء وأرجعت البحر عدة امتار وشيئاً فشيئاً ، وببطء . غطى الرمل واجهة المستودع ولم تعد السفن الشراعية ترسو هنا أبداً . وكانت تبحر من مكان لآخر بحمولاتها ولم يعد العبيد ذوو العضلات البارزة يعملون هنا ، وكان قد أتى بهم نظام الرق ولم تعد تصاعد من تحت الجسر اغنية بحار امتلأ بالحنين وقد امتد الرمل بلونه المضيء امام المستودع ولم يعد يملأ المستودع الواسع جداً بالبالات والطرود والأكياس والصناديق .

وبقي المستودع مهجوراً . وسط الرمال . بقعة سوداء على بياض ارصفة الميناء

وطوال اعوام . ظل المستودع مأهولاً فقط بالجرذان التي كانت تختاره في جري مرح وطائش وكانت تقضم خشب ابوابه الضخمة . وكانت تسكنه سيدة عليه وحدها . وفي عهد معين ، دخل اليه كلب متشرد . كان يبحث عن ملجأ ضد الريح والمطر ولم ينم في الليلة الأولى . اذ انشغل في تمزيق الجرذان التي كانت تمر امامه مسرعة وقد نام اثر

ذلك بضع ليالٍ، نابحاً في وجه القمر، عند الصبح. ذلك لأن قسماً من السقف قد انهار، وكانت اشعة القمر تنفذ بحرية، مضيئة ارض المستودع المصنوعة من الواح عتيقة. لكن هذا الكلب كان بلا شك كلباً دون صاحب، فذهب بسرعة باحثاً عن مأوى آخر: ظلمات باب، أو اعماق جسر، أو عن جسد دافىء لكلبة. واستعادت الجرذان مملكتها، حتى اليوم الذي اختار فيه « فرسان الرمال » هذا المستودع المهجور ليكون مقراً لهم.

في تلك العهد، كان الباب قد انهار من جانب، ودخل احد « فرسان الرمال » إلى المستودع، حين كان يتسكع يوماً عبر املاكه الواسعة. (ذلك لأن كل منطقة رمال الارصفة، كما هي جميع انحاء مدينة « باهيا » كان يملكها « فرسان الرمال »).

وكان هنا أفضل موضع تماماً للنوم منه على الرمل العاري، أو في المستودعات الأخرى حيث كانت المياه تتصاعد احياناً عالياً جداً بحيث تهدد باغراقهم. ومنذ تلك الليلة، أخذ قسم كبير من « فرسان الرمال » ينامون في المستودع القديم المهجور، في صحبة الجرذان تحت القمر الأصفر. وأمامهم كان الاتساع اللانهائي للرمال، وهي بياض لا نهاية له أيضاً. وفي البعيد، كان البحر الذي تتكسر امواجه على ارصفة الميناء. ومن الباب، كانوا يرون أضواء السفن التي تدخل وتخرج. وعبر السقف، كانوا يرون السماء الملأى بالنجوم، والقمر الذي يغمر ارجاء السماء والأرض بضيائه الباهر.

وبعد وقت قصير، نقلوا إلى المستودع مخزون الاشياء التي كانت تتجمع لديهم من عمل النهار، وقد دخلت حينئذ إلى المستودع اشياء غريبة، لكنها ليست مع ذلك اكثر غرابة من هؤلاء الأولاد اللصوص الاشقياء من جميع الألوان والاعمار، على اختلافها، منذ سن التاسعة حتى السادسة عشرة، ـ الذين كانوا في الليل يتمددون على الأرض، تحت الجسر، نائمين بلا مبالاة بالريح التي تهب حول المبنى وهي تزمجر، وغير آبهين بمياه المطر التي كانت كثيراً ما تغسلهم، لكنهم يبقون اعينهم موجهة نحو اضواء السفن وآذانهم منتبهة إلى الأغاني القادمة من المراكب...

وهنا يسكن أيضاً زعيم « فرسان الرمال »: بيدرو بالا. ومنذ وقت مبكر، منذ سنه الخامسة، أطلق عليه هذا الاسم. وهو اليوم في الخامسة عشرة من عمره ومنذ عشرة اعوام وهو يتشرد ويتسكع في طرقات « باهيا ». وهو لم يعرف أبداً أي شيء عن امه، وقد قُتل ابوه برصاصة. وبقي بيدرو وحيداً، وقضى سنوات في التعرف إلى المدينة. وهو اليوم يعرف كل دروبها وطرقاتها وشوارعها، ولا يوجد حانة أو محل لبيع الفواكه أو مقهى لا يعرفه. وحين انخرط في « فرسان الرمال » (إن الارصفة التي بنيت

حديثاً قد اجتذبت برمالها جميع اولاد المدينة المشردين) كان زعيم « الفرسان » هو رايموندو، « الكابوكل » (أي الهلاسي البرازيلي)، وكان فتى هجيناً قوي البنية وافر النشاط.

ولم يحتفظ ريموندو « الكابوكل » زمناً طويلاً بمركزه كزعيم « لفرسان الرمال ». وكان بيدرو بالا اكثر نشاطاً منه بكثير. وكان يعرف كيف يرتب الضربات، ويعرف كيف يسافه الآخرين. وكان يحمل في عينيه وفي صوته سلطة الزعيم. وفي أحد الايام، تشاجرا. وكان من سوء حظ ريموندو أنه استلّ موسى وجرح بها وجه بيدرو وهي ندبة بقيت في وجهه نهائياً. وتدخل الآخرون، ونظراً لأن بيدرو كان بلا سلاح، فقد اعطاه رفاقه الحق، وانتظروا، آملين بانتقام لم يتأخر في الحقيقة. وفي احدى الليالي، حين أراد ريموندو أن يضرب باراندارو، وقف بيدرو إلى جانب الزنجي الصغير، وانقلب الخصمان على الأرض (أي ريموندو وبيدرو)، وانخرطا في صراع أكثر اثارة من أي صراع سبق أن شهدته رمال المرفأ. وكان ريموندو أكبر جسماً واكثر سناً، لكن بيدرو بالا، بشعره الاشقر المتطاير في الهواء، والندبة الحمراء في وجهه، كان ذا رشاقة هائلة في توجيه الضربات. وهكذا تغلب على ريموندو. ومنذ ذلك اليوم، لم يتخل ريموندو فقط عن قيادة « فرسان الرمال » بل ترك المكان كله، والتحق اثر ذلك بالعمل على احدى السفن.

وقد اعترف الجميع بحقوق بيدرو بالا في القيادة وابتداء من ذلك الحين بدأت المدينة في سماع الحديث عن « فرسان الرمال »، اولئك الاولاد المشردين الذين يعيشون من السرقة. ولم يعرف أحد اطلاقاً العدد المضبوط للاولاد الذين يعيشون على هذا النحو. وكانوا اكثر من مئة ومن بين هؤلاء، كان اكثر من اربعين ينامون في المستودع القديم.

وكانوا يلبسون اسمالاً بالية، وقذرين وأشباه جائعين باستمرار، وعدوانيين، يطلقون الشتائم، ويدخنون اعقاب السجائر، وكانوا في الحقيقة سادة المدينة، أولئك الذين يعرفونها بكاملها، والذين يحبونها كلياً، وكانوا هم شعراءها.

ليل «فرسان الرمال»

كان ليل السلام الكبير القادم من أرصفة المرفأ قد لف السفن الشراعية، والقلعة، وسد الميناء، وتمدد على طلعات الطرق وأبراج الكنائس. وكانت الاجراس قد كفّت عن الرنين لصلاة الغروب، ذلك لأن الساعة السادسة كانت قد دقت منذ حين طويل. وإذا كان القمر لم يبزغ بعد في هذه الليلة النيرة، فقد كانت السماء ملأى بالنجوم. وكان المستودع منفصل المشهد عن بياض الرمال التي تحتفظ بآثار خطى «فرسان الرمال»، الذين كانوا قد ناموا. وفي البعيد، كان النور الضعيف لـ «بورتا دو مار» (وهي حانة للبحارة) يبدو وكأنه يحتضر. وكانت ريح باردة تهب مثيرة الرمال ومعرقلة سير الزنجي جواو غراندي الذي كان يتأهب للذهاب إلى النوم. كان يمضي منحياً تحت الريح مثل شراع زورق. كان طويل القامة، وهو أطول فتيان العصابة، وأقواهم أيضاً. وكان شعره قصيراً وعضلاته صلبة، رغم أنه لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، انقضت أربع منها في أوسع حريات الحياة. راكضاً في طرقات «باهيا» في صحبة «فرسان الرمال». ومنذ بعد ظهر ذلك اليوم، حين صرع أبوه، وهو سائق عربة عملاق. في صدمة من شاحنة، في حين كان يقود حصانه إلى جانب الطريق، لم يعد الفتى جواو غراندي إلى بيتهم الصغير في «المورو»[1]. وأمام «جواو» كانت المدينة الغامضة الملأى بالاسرار، وقد ذهب لغزوها. إن مدينة باهيا، السوداء والتقية. هي غامضة تقريباً مثل غموض البحر الاخضر وامتلائه بالاسرار. ولأجل هذا بالذات، لم يعد جواو غراندي إلى بيته أبداً. وقد انضم وهو في التاسعة من عمره إلى «فرسان الرمال»، حين كان «الكابوكل» (الخلاسي ريموندو) ما زال هو الزعيم والمجموعة غير معروفة، ذلك لأن الكابوكل لم يكن يحب أن يتعرض للخطر. وبسرعة كبيرة، فرض جواو غراندي نفسه كواحد من زعماء المجموعة، ولم يفته أبداً حضور أي من الاجتماعات التي كان ينظمها القادة لتدبير السرقات. وليس ذلك لأنه

(١) «المورو»: تلة يعيش عليها الزنوج في أكواخ.

كانت له مواهب خاصة كمعظم لحوادث السطو هذه، ولا حتى كان لديه ذكاء حاد بل بالعكس. فقد كان التفكير يسبب له وجعاً في الرأس، وكانت عيناه تحرقانه حين يحاول التفكير. وكان يصاب بذلك الألم أيضاً حين يرى شخصاً ما يسيء معاملة الصغير. حينئذ كانت عضلاته تتوتر، وكان يصبح مستعداً لأية مشاجرة لكن قوته العضلية الهائلة كانت تجعله شخصاً مرهوب الجانب، وكان الصبي «ذو الرجل الرخوة» يقول عنه:

- إنه زنجي غبي لكنه قوة جبارة.

وكان الصبيان الأصغر سناً، جميع هؤلاء الصغار الذين يصلون إلى الجماعة مفعمين بالخوف. كانوا يجدون في «جواو غراندي» أقوى حماتهم وأصلبهم. وكان بيدرو الزعيم يحب أيضاً الاصغاء إلى جواو. وكان هذا يعرف جيداً أنه لا يحوز على صداقة بيدرو بسبب قوته، أي جواو غراندي، بل إن بيدرو كان يجد أن الزنجي طيب. ولم يكن يتعب من الترديد

- إنك طيب. يا غراندي. وأنت أفضل منا. إنني احبك كثيراً. وكان يربت بلطف على ساقي الزنجي الذي كان وجهه يحمر من التأثر والسرور.

كان جواو غراندي يتقدم نحو المستودع. وكانت الريح تعرقل سيره. وانحنى هو لكي يقاوم ضد الريح التي كانت ترفع الرمال في الهواء. وكان جواو في حانة «بورتا دو مار» يشرب كأساً من الخمر مع «حبيب الله الطيب» الذي وصل اليوم من بحار الجنوب. حيث يوجد أحد المصائد.

وكان «حبيب الله الطيب» هو أشهر لاعب كابويرا[2] في المدينة. ومن الذي لا يحترمه في «باهيا»؟. وما من أحد يستطيع أن ينافس «حبيب الله الطيب» في مصارعة الكابويرا، حتى ولا زيه موليث الذي حاز شهرة عظيمة في ريو دي جانيرو. وقد روى «حبيب الله الطيب» الاخبار، وأبلغ بأنه سيظهر في اليوم التالي في «المستودع» لمواصلة اعطاء دروس في مصارعة الكابويرا التي يتلقاها بيدرو بالا، وجواو غراندي، و... القط. كان جواو غراندي يدخن سيجارة ويسير نحو المستودع. وكان أثر قدميه الكبيرتين ينطبع في الرمل. لكن الريح، كانت تقوم بمحو آثار خطاه. وكان الزنجي

(٢) الكابويرا: طريقة مصارعة ولدت من رقصة للزنوج، وقد احتفظت منها بالإيقاع والتي تصاحب حركاتها فرقة حرفة موسيقية خاصة. وهذه المصارعة التي تشكل استعمال الرشاقة على القوة هي المصارعة الوطنية الممتازة

يفكر في أن طرق البحر خطرة في هذه الليلة الهوجاء الريح.

كان جواو غراندي يمر تحت الجسر، وتنغرس قدماه في الرمل متلافياً أن يمس أجسام الرفاق الذين يرقدون هنا. ودخل إلى المستودع، وقد تردد لحظة، ونظر حتى يتبين ضوء شمعة «الاستاذ» وكان هذا في ابعد زاوية من المبنى. آخذاً في القراءة على ضوء شمـ.... كان جواو غراندي يفكر في أن هذا الضوء هو اضعف وأكثر تراقصاً من .... في حانة «بورتا دي مور» وأن «الاستاذ» يضعف بصره لكثرة قراءته هذه الكتب المطبوعة بأحرف صغيرة. واتجه جواو غراندي نحو «الاستاذ» رغم أنه، أي جواو، كان ينام دائماً عند باب .... ، مثل كلب حراسة، والخنجر قرب يده، لتلافي أية مباغتة.

كان يمضي سائراً بين جماعات الفتيان التي تتناقش، وبين الاولاد النائمين، ووصل إلى قرب «الاستاذ»، وقرفص إلى جانبه، وراح يراقب القراءة المتنبهة للشخص الآخر

إن جواو ـ جوزيه «الاستاذ»، منذ اليوم الذي سرق فيه كتاباً من على رف منزل في حي «بارا» قد اعتبر أستاذاً في هذا النوع من السرقة، بيد أنه لم يقم أبداً ببيع الكتب التي كانت تتكدس في احدى زوايا المستودع، تحت قطع الآجر، لكي لا تقرضها الجرذان. كان يقرأها كلها نظماً اقرب إلى الحمى. وكان يحب أن يعرف الاشياء، وكان هو نفسه الذي يروي، في كثير من الليالي، للفتيان الآخرين قصص المغامرين، والبحارة والشخصيات البطولية والاسطورية، وهي قصص كانت تشحذ هذه العيون المتوهجة نحو البحر أو نحو طلعات المدينة، في تعطش إلى المغامرات والبطولة. كان جواو ـ جوزيه هو الوحيد بين فتيان «فرسان الرمال» الذي يقرأ بصورة صحيحة، ومع ذلك لم يقض في المدرسة سوى عام ونصف، لكن الممارسة اليومية للقراءة قد أيقظت خياله كلياً، وربما كان هو الوحيد بين رفاقه، الذي لديه وعي معين لما يوجد من بطولة في حيوات الناس. وهذه المعرفة وهذه القدرة على رواية القصص قد أكسبته احترام «فرسان الرمال» له، رغم أنه كان صغير الجسم، نحيفاً وحزيناً، وشعره البني يتساقط على عينيه الضيقتين الحسيرتين (ميوب). وقد لقب بـ «الاستاذ» لأنه تعلم في احد الكتب المسروقة القيام ببعض الالعاب السحرية، مع مناديل ودراهم، وكذلك لأنه لدى روايته القصص التي كان يقرأها، وكثيراً غيرها كان يتخيلها، كانت لديه القدرة العظيمة والغامضة بالاسرار، لنقلهم إلى عوالم متعددة، وكانت لديه القوة لجعل العيون المتوجهة لـ «فرسان الرمال» تبرق متلألئة كما تتلألأ وحدها نجوم ليل

«باهيا» ولم يكن «بيدرو بالا» يقرر شيئاً دون أن يستشير «الاستاذ» وكثيراً ما كان خيال «الاستاذ» هو الذي ولد أفضل خطط السرقة ولم يكن احد يعرف مع ذلك، أنه سيأتي يوم، بعد أعوام كثيرة، حيث سيعلمه أن يروي في لوحات ستثير رعب البلاد، قصة حيوات «فرسان الرمال»، وكثير من القصص الاخرى لرجال يناضلون ويعانون الكثير من المتاعب والمآسي. ربما كانت دون آنينها[٣] وحدها، أو معها «ماي دي سانتو»[٤] هي التي تعرف ذلك، والتي تروي مغامرات الابطال الزنوج والخلاسيين في ليالي العواصف.

ظل جواو غراندي وقتاً طويلاً ينظر إلى الآخر وهو يقرأ. وبالنسبة للزنجي، لم تكن هذه الحروف تعني أي شيء. وكان بصر الزنجي ينتقل من الكتاب إلى ضوء الشمعة المتراقص، ومن هذا إلى الشعر المشعث «للاستاذ» وانتهى به الامر إلى التعب، وسأل بصوته الحار المليء: ـ أهذا جميل يا «استاذ»؟

حول الاستاذ نظره عن الكتاب، وربت بيده النحيفة المعروقة على كتف الزنجي، أكثر المعجبين به حرارة وقال، انها قصة رائعة يا كبيري العظيم.

والتمعت عينا الأستاذ.

ـ أي قصة بحار؟

ـ انها قصة زنجي مثلك تماماً. وهو زنجي وقوي في الحقيقة.

ـ هل ترويها لي؟

ـ حين انتهي من قراءة الحكاية، سوف ترى أي زنجي عظيم هو بطلها...

وعاد ليستغرق في صفحات الكتاب واشعل جواو غراندي سيجارة رخيصة، وقدم في صمت سيجارة اخرى «للاستاذ»، وراح يدخن، مترفعاً كما لو أنه كان يسمر في قراءة الآخر، وعبر المستودع كان ينتشر صوت ضحكات، وثرثرات، وصخب وكان جواو غراندي يتميز بوضوح صوت «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان يصر صريراً ويضحك. كان «ذو الرجل الرخوة» يتكلم عالياً ويضحك كثيراً. وكان هو جاسوس المجموعة، ذلك الذي كان يعرف كيف يدخل طوال اسبوع في

(٣) دون آنينها، حرفياً. السيدة آنيت

(٤) «ماي دي سانتو» وباي دي سانتو، كهنة الصلوات الغيبية (أو التيمية، وهي عبادة الاشياء السحرية) للدين الرسمي. وهؤلاء الكهنة كانوا على حد سواء، نساء، أي ماي دي سانتو، أو الرجال، باي دي سانتو، أي بالضبط أم القديس أو أبو القديس.

احدى العائلات، متظاهراً بأنه غلام طيب صغير اضاعه اهله في الاتساع العدواني للمدينة

وكان اعرج. لُقب لاجل ذلك بـ «ذي الرجل الرخوة»، لكنه عاد عليه ايضاً بعطف امهات عائلات بريئه على عتبة منازلهن، مسكيناً حزين المظهر، يستعطي قليلاً من الطعام والمأوى لأجل ليلة. والآن وسط المستودع، كان «ذو الرجل الرخوة» يسخر من «القط» الذي اضاع نهاراً بطوله في سرقة خاتم بلون نسذي، دون أية قيمة، لأنه حجر مزيف ذو جمال مزيف أيضاً

وكان قد مر اسبوع و«القط» قد ابلغ جميع الناس قائلاً. لقد رأيت احد تلك الخواتم الرائعه، يا اخي الكبير، الذي لا يملك مثله حتى المطران. انه خاتم ملائم تماماً لأصبعي. ملائم كلياً أيها الأخ. وسوف ترى حين سأحضره

- من أيه واجهة زجاجيه؟

- في أصبع احد الحمقى. وهو شخص بدين جداً يستقل كل يوم قطار بروتاس، في اسفل حي ساباتيرو

وقد نجح «القط» اخيراً وسط الزحمة الشديدة في قطار الساعة السادسة مساء، في سحب الخاتم من أصبع الرجل البدين، محتمياً وسط الهرج والمرج الذي ساد القطار عند صراخ الرجل الضخم حين تبين سرقة خاتمه. وأظهر «القط» الخاتم في اصبعه الأوسط لرفاقه من «فرسان الرمال».

وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك

- هل يمكن لشخص عاقل أن يعرض نفسه للسجن لأجل قذارة كهذا الخاتم. انه خاتم قذر

- وماذا يهمك أنت من هذا؟ أنا يروق لي هذا الخاتم، وهذا كل شيء.

- انك تجلس هنا كالاحمق مع هذه القذارة.

- ولكن بالعكس، فهو لطيف جداً في اصبعي. ولدي فكرة أخرى لأسرق خاتماً اجمل منه أيضاً

وكان الفتيان يحدثون أيضاً طبعاً عن النساء، رغم أن اكبرهم سناً لا يكاد يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وكانوا في سن مبكرة يعرفون اسرار الحب.

إن بيدرو بالا، الذي دخل، قد حسم المجادلة التي نشبت. وترك حواو غراندي «الاستاذ» في قراءاته، واقترب من الزعيم. وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك لوحده، متمتماً بكلمات في صدد الخاتم. ودعاه بيدرو، واتجها يتبعهما حواو غراندي،

نحو الزاويه حيث يوجد «الاستاذ»

- تعال ادن. ايها «الاستاذ»

وجلسوا ارضاً. واشعل «ذو الرجل الرخوة» عقب سيجارة ممتازه، وراح يدخنها ببلاده. وكان «حواو غراندي» يتفحص القسم من البحر الذي كان يرى عبر الباب، وراء الرمال. وتكلم بيدرو

- إن غونزاليس من الحي (١٤) قد حدثني اليوم.

- هل هو يريد أيضاً سلسله ذهبيه؟ وفي المرة الاخيرة... وتوقف «ذو الرجل الرخوة» عن الكلام

قال بيدرو: كلا. بل انه يريد قبعة ولكن من اللبد النفيس. أما قبعه القش فلا تساوي شيئاً. وهو يقول ان هذه لا يمكن عملها... وكذلك..

- هذا أيضاً هكذا! قاطعه مجدداً «ذو الرجل الرخوة».

- وكذلك فإن القبعات العالية جداً لا تناسب

- إنه يريد قبعه فاخرة من اللبد. لا غير. وعلى كل حال، فنحن نعمل معه في تجارة. وهو لا يجود علينا حتى بنصف دينوس.

- لا بأس يا «ذا الرجل الرخوة». إذا كنت تريد السير في المسألة. اذهب. ولكن دعنا نرتب المسألة بصورة منظمة وصالحة

- «أقل اني لا أريد المضي في هذه العملية. بل اقول فقط إن العمل من أجل حي يسرق المومسات، ليس عملاً مناسباً. ولكن اذا كان يروق لك

- إنه يقول بأن هذه المرة سيكون سخياً معنا. وسيقدم مالاً يساوي جهدنا. لكنه لا يريد سوى قبعة من اللبد، قويه وجديده. واستمر «ذو الرجل الرخوة»: سوف نستطيع. مع أخرين ان نأخذ المسألة على عاتقك. وغداً مساءً، سيرسل غونزاليس إلى هنا مستخدمه من الحي ١٤، لحمل النقود وأخذ القبعات

- ان المكان المناسب هذه العملية هو دور السينما. هكذا قال «الاستاذ» وهو ينصت نحو «ذي الرجل الرخوة»

- إن سينما «فيكتوريا» هي مكان يقصده الناس الاغنياء

وابدى «ذو الرجل الرخوة» حركة ازدراء. ويكفي الامر الدخول إلى أروقة السينما، والعثور على قبعات بالتأكيد. وهذه الدار هي مقصد الناس من ذوي اليسر والغنى... من أعلى مستوى من الناس

- وهناك رجال الشرطة أيضاً

- هل تهمك الشرطة؟ إن حراس دور السينما يكتفون بالتفرج على الأفلام، وممارسة لعبة التحشة

- هل تأتي معي أيها «الأستاذ»؟

- سآتي لا سيما وأنا في حاجة إلى قبعة جديدة

وأضاف بيدرو بالا

حتى لو رافقتك من تريد من الفتيان، يا «ذا الرجل الرخوة» باستثناء الطويل و«القط» اللذين لدي معهما مشروع لأجل الغد

وابتعد نحو «جواو غراندي»:

- إنها عملية مع «حبيب الله» الطيب

- لقد سبق وحدثني عنها وقال إنه جاء هذه السنة لأجل مصارعة «الكابويرا»

وانصرف بيدرو نحو «ذي الرجل الرخوة» الذي كان ينسحب ليدبر مع صاحبه الفتى «سكر الشعير» تشكيل الفريق من الصبيان الذي سيذهب في اليوم التالي للبحث عن قبعات. وقال له بيدرو

- نعم، يا «ذا الرجل الرخوة»

ونبه الفتيان إلى أنه إذا افتضح أمر أحدهم فعليه أن يفارق هذا المكان نهائياً ويجب أن لا يعود إلى هنا إطلاقاً

وذهب بيدرو بسيجارة، ومد بها جواو غراندي واحدة وكان «ذو الرجل الرخوة»، الذي صار بعيداً، كان يدعو «سكر الشعير». وراح بيدرو يبحث عن «القط» وكان يريد أن يناقش معه مسألة عملية جرى وعاد إثر ذلك، وتمدد قرب موضع جلوس «الأستاذ» و... هذا كتابه، وظل عاكفاً على قراءته حتى ذابت الشمعة كلياً، وغمرت الظلمة ذلك المكان. وسار «جواو غراندي» بهدوء نحو الباب، حيث رقد بطوله، واستحجر في حرامه

كان «سكر الشعير» نحيفاً وطويلاً جداً، وذو وجه جاف شبه مصفر، وعينين غائرتين خاصتين بالزهاد، وفم دقيق، قليل الابتسام. وراح «ذو الرجل الرخوة» يسخر منه، سائلاً إياه إذا «كان قد بدأ صلواته»، ثم تطرق إلى موضوع سرقة القبعات، وقد اتفقا على أنهما سيصطحبان عدداً من الأولاد الذين اختارهم بعناية، وعين موضع القبعات وافترقا. وذهب «سكر الشعير» إلى موضعه المعتاد، في إحدى زوايا المستودع، وكان ينام بصورة دائمة في موضع يشكل الجدران عنده زاوية دافئة، وقد وضع هناك كل أشيائه وممتلكاته، وهي عبارة عن لحاف بال، ووسادة

سرقها من فندق حيث دخل إليه في أحد الأيام حاملاً أمتعة أحد المسافرين. وكان لدى «سكر الشعير» أيضاً بنطلون كان يلبسه يوم الأحد مع كنزة لا يمكن تحديد لونها، لكنها نظيفة بعض الشيء، على كل حال. وكانت هناك صورتان لقديسين موضوعتان في إطارين، وهما مسمرتان في الجدار، كانت إحداهما صورة للقديس أنطوان يحمل بين ذراعيه الطفل يسوع المسيح، (كان اسم «سكر الشعير» هو أنطوان، وقد سمع من يقول إن القديس أنطوان كان برازيلياً) والصورة الثانية كانت تمثل «سيدتنا ذات السبعة آلام»، ذات الصدر المثقوب بالسهام، ولكن كانت توجد تحت إطارها زهرة ذابلة. وتناول «سكر الشعير» الزهرة، وشمها ووجد أنها لم تعد تفوح بأية رائحة. وحينئذ علقها في الكتفية (وهو ثوب يلبسه الرهبان على الكتفين والظهر) التي كان يرتديها على صدره، وأخرج من جيب سترة قديمة يلبسها، زهرة قرنفل حمراء قطفها من إحدى الحدائق، تحت نظر الحارس بالذات، عند لحظة الغروب الغامضة. ووضع القرنفلة بعناية وحب تحت إطار الصورة، في حين راح يتأمل القديسة بنظرة مفعمة بالحنان. وإثر ذلك على الفور، ركع يصلي. وفي البدء كان الفتيان الآخرون يتهالكون بالتنكيت عليه لرؤيته راكعاً في الصلاة. ومع ذلك فقد اعتادوا على مشاهدته كذلك ولم يعد أحدهم يعير الأمر أهمية. وراح يصلي، وكان مظهره المعبر كزاهد يردد طهره. وكانت يداه الطويلتان والنحيفتان ترتفعان أمام صورة القديسة، في حركة عبادة. وكان كل وجهه كأنما هو يخطط بهالة وكان صوته يكتسب أنغاماً وارتعاشات يجهلها رفاقه. وكان يظهر مأخوذاً إلى خارج هذا العالم، وكأنه لم يعد داخل المستودع المتداعي والمهدم بل في أرض أخرى قرب سيدتنا ـ ذات الآلام ـ السبعة، بيد أن صلاته كانت مبسطة، وهي لم يتعلمها في كتاب الصلوات. كان يطلب في صلاته من العذراء مساعدته في أحد الأيام لكي يستطيع الدخول إلى تلك الكلية المقدسة (السودرية) التي سيخرج منها الفتيان وقد تحولوا إلى كهنة. وكان «ذو الرجل الرخوة» قد رتب تفصيلاً عملية القبعات. وإثر رؤية رفيقه وهو يصلي، تأهب لمداعبته بمزاح خبيث. وهو مزاح كان مجرد التفكير فيه يدخل السرور والبهجة إلى قلبه، وكان يشوش بذلك كلياً صلاة صديقه «سكر الشعير». وحين وصل «ذو الرجل الرخوة» إلى قرب المصلي، رآه في حالته هذه، رافعاً يديه في حركة عبادة وعيناه مرتفعتان إلى مكان مجهول، ووجهه مضيء بتعبيرة الإيمان، (وكان كأنه مغمور بهناء ونعيم لا حدود لهما) توقف «ذو الرجل الرخوة» وماتت الضحكة الساخرة على شفتيه، ولبث يتفحص صديقه، وهو شبه خائف. وقد اجتاحه شعور يعود لبعض

الشيء إلى الرغبة وإلى اليأس. وتوقف « ذو الرجل الرخوة » ناظراً، ولم يكن « سكر الشعير » يتحرك. وكانت شفتاه وحدهما تتحركان ببطء. وكان من عادة « ذي الرجل الرخوة » أن يسخر منه كما كان يسخر من جميع الصحاب الآخرين في مجموعة رجال من « الأسد » الذي كان يحبه، ومن بيدرو بالا الذي كان يحترمه. وكان كل وافد جديد إلى « فرسان الرمال » يكون لدى وصوله فكرة قاسية عن « ذي الرجل الرخوة »، ذلك لأن هذا الأخير كان يسارع إلى مهاجمته، ضاحكاً إزاء أية عبارة يتفوه بها الوافد الجديد. وكان يحول كل شيء إلى موضوع مضحك، وكان من أكثر الفتيان ولعاً بالشجارات والمشاجرات، وكانت شهرته في الخبث راسخة بقوة. وفي أحد الأيام، قام بعملية تعذيب عنيفة ضد قط دخل إلى المستودع القديم. وفي مرة أخرى، صفع بضربة موس علامة في أحد المطاعم وذلك فقط ليسرق منه فروجاً مشوياً. ولكن رفاق « ذي الرجل الرخوة » قد رأوه يوماً وهو يتقيأ، ببرود، خراجاً في ساقه بواسطة مطواة (عربية) وتحت نظر الجميع قام بذلك العمل وهو يضحك. وفي المجموعة كان كثيرون لا يحبونه. لكن الذين كانوا يغضون النظر عن عيوب « ذي الرجل الرخوة » ويرتبطون معه في صداقة كانوا يقولون عنه إنه « شخص طيب ». وفي أعمق أعماق قلبه، كان يتألم لأحزانهم ومصائبهم جميعاً. وكان وهو يضحك ويسخر، يفتش عن سبب تعاسته وكان ذلك بالنسبة إليه مثل مخدر. وقد مكث ساكناً دون حركة وهو ينظر إلى « سكر الشعير » المستغرق في صلاته. وعلى وجه المصلي، مرت نفحة حماسة شديدة، وشيء حسبه من بعيد « ذو الرجل الرخوة » ابتهاجاً أو غبطة. لكنه راح يتفرس في وجه الآخر، وعثر فيه على تعبير لم يكن يعرف كيف يحدده، وكان يقلص وجهه الصغير ويفكر في أنه لم يحدث أن سنحت له أبداً في حياته أن يفكر في الصلاة ولا في أن يتجه نحو السماء. بل كان يحدثهم عنها كثيراً الأب جوزيه بيدرو، حين كان يأتي لزيارتهم. وكان ما يريده « ذو الرجل الرخوة » هو السعادة، والفرح والبهجة. وكان يفر من كل هذا البؤس وهذه التعاسة التي تحوم حولهم وتخنقهم. صحيح أنه كانت هناك حرية كبيرة يجدها في الطرقات وشوارع المدينة الواسعة. ولكن كان هناك الجوع. وكان يبحث عن شيء عطوف، وعن كل كلام طيب. وهذا كله كان « سكر الشعير » يبحث عنه في السماء، وفي الصور المقدسة، وفي الأزهار الذابلة التي كان يأتي بها من الحدائق ... الآلام ... ، مثل شخص يتسلق في حي المدينة الأرستقراطي ... التي يحبها. ولكن « ذو الرجل الرخوة » لم يكن

يفكر في أن هذا يمكن أن يكفي. وكان ما يريده هو شيئاً فورياً، شيئاً يجعل وجهه باسماً ومبتهجاً، ويحرره من الحاجة والعوز، ويجعله يسخر من الجميع ومن كل شيء وأن يحرره أيضاً من هذه الغصة ومن هذا القلق الخانق ومن هذه الرغبة في البكاء التي كانت تنتابه في ليالي الشتاء. ولم يكن يريد الأشياء التي يسعى إليها « سكر الشعير ». هذه العذوبة الحزينة في وجهه. كان « ذو الرجل الرخوة » يريد الفرح والبهجة، ويريد نداءه، وشخصاً ينسيه الكثير من الأسى المفعمة الخسيسة (من حياته) وجميع هذه السنوات (وربما لم تكن هي بالكاد سوى شهور أو أسابيع لكن بالنسبة له ستظل دائماً أعواماً طويلة) التي عاشها وحيداً في طرقات المدينة وشوارعها، تعامله المارة بقسوة وسخرية، وينهال رجال الشرطة عليه بالضرب، بسبب وبدون سبب، وكذلك للاستهزاء الأكثر سناً. ولم يكن له أبداً عائلة وقد سكن في منزل خباز كان هو ينادي « يا عرابي ». لكن هذا كان يضربه يومياً. وقد فر من ذلك المنزل بعد أن استطاع أن يفهم أن الفرار يمكن أن يحرره. فقد عانى الجوع. ثم في أحد الأيام ساقوه إلى السجن كان يريد مداعبة حنان، وبدأ تمحو من عينيه ذكريات تلك الليلة في السجن، حين جعله الجنود السكارى يركض على رجله العرجاء دائراً حول الغرفة. وفي كل زاوية كان يوجد شخص مسلح بهراوة من المطاط الصلب. والآثار التي تركتها هذه الهراوات على ظهره قد امحت. ولكن في عمق نفسه لم يمح أبداً الألم الذي أصابه في تلك اللحظة. كان يركض في الغرفة مثل حيوان تطارده حيوانات أخرى أقوى منه. كان يجد صعوبة في تحريك ساقه العرجاء. وكان سوط المطاط ينزل على ظهره حين كان التعب يجبره على التوقف. وبدءاً يبكي كثيراً، ثم ودون أن يدري كيف جفت دموعه. وفي لحظة معينة، لم يعد يقوى فيها الضرب، وفي الأخير سقط منهاراً على الأرض. كان لحمه المتمزق ينزف دماً، وما زال حتى اليوم، يسمع ضحكات الجنود وضحكة ذلك الرجل ذي الصدرة الرمادية الذي كان يدخن سيجاراً. وإثر ذلك، التقى بفرسان الرمال، (وكان الأستاذ هو الذي جاء به، بعد أن شاهده يتعطف على مقعد في حديقة) وبقي بينهم ولم يطلعهم على الأمر حتى غير ذلك، لأنه كان يعرف أنه أفضل من أي شخص آخر، أصبح من الجديد، وبذلك يخدع المهرات (زمرات مسارل) اللواتي كن يمررن ... بعد ذلك أفراد العصابة الذين كان قد أعلمهم بجميع المواضع التي تحتوي على الأشياء الثمينة، ولكن عادت المنزل. وكان « ذو الرجل الرخوة » يحس بارتياح حقيقي حين يتصور كم سوف تبكيه هؤلاء النساء اللواتي حسبنه يتيماً مسكيناً. هكذا كان يثأر، لأنه كان مفعماً بالحقد والبغضاء. كان يحس برغبة سوداء في امتلاك قنبلة (مثل

تلك القنابل التي ورد ذكرها في قصة رواها هو « الاستاذ ») قنبلة تستطيع أن تدمر المدينة كلياً ، وأن تنسف العالم بأسره وعلى هذا النحو سوف يكون سعيداً وربما سيكون سعيداً أيضاً اذا جاء شخص ، ربما امرأة ذات شعر وخطه الشيب ، ويديه ناعمتين ، شده على صدرها ، وتداعب وجهه وتجعله ينام نوماً هنيئاً ، نوماً لا تعكره كوابيس ليلة السجن على هذا النحو سيكون سعيداً ، ولن يطعم الحقد قلبه بعد ذلك ولن يشعر بعد ذلك بالازدراء ولا بالحسد ، ولا بالبغضاء ضد « سكر الشعير » ، الذي يفر ، رافعاً يديه إلى الأعلى ، مغمض العينين ، من عالم الآلام نحو عالم عالي ، تكشف عنه احاديث الاب جورجه بيدرو

اقتربت جلبة اصوات ووصلت جماعة من اربعة غلمان تشق السكون السائد في ليل المستودع قفز « ذو الرجل الرخوة » ضاحكاً وراء ظهر « سكر الشعير » ، الذي استمر يصغي ورفع كتفيه وقرر أن يترك إلى صباح اليوم التالي تحديد تفاصيل سرقة القبعات ونظراً لأن « ذا الرجل الرخوة » يخشى النوم ، فقد تقدم نحو جماعة الغلمان التي وصلت ، وطلب سيجارة ، معلقاً ببعض النكات حول قصة المرأة ، التي كان يرويها الغلمان الأربعة .

- صبيان من طرازكم ، من يمكن أن يصدق بأنكم قادرون على بطح امرأة ؟ لا بد أنها حالة لعبة تلبس ثياب بنت صغيرة

غضب الآخرون

- لا تتظاهر بالمكر والشطارة على كل حال اذا شئت تعال لنرى معاً ، وهكذا سوف نتعرف إلى البنت التي تشكل فريسة جيدة

ضحك « ذو الرجل الرخوة » ، ساخراً

- بي بنت من مكافحي الجرائم ومضى إلى عمق المستودع

لم يكن « القط » قد نام بعد انه يخرج دائماً بعد الساعة الحادية عشرة ، انه الغلام الانيق في الجماعة وعند وصوله وهو غلام ابيض وودي ، حاول « الشارب اللطيف » الاستيلاء عليه ، ولكن منذ ذلك الحين ، كان « القط » ذا رشاقة وخفة هائلتين ، ولم يكن قادماً ، كما كان يظن « الشارب اللطيف » ، من عائلة برجوازية بل كان « القط » قادماً من الهنود المالوكيريوس ، وهم اولاد يعيشون تحت جسور اراكاجو ، المدينة البرازيلية وقد قام برحلته متعلقاً بمؤخرة أحد القطارات ، وكان مطلعاً على الحياة التي يمكن ان تعيشها جماعة من الاولاد المشردين وعلى كل حال ، كانت سنه تربو على ثلاثة عشر عاماً هكذا ، استغل فوراً السبب لدى عاملة من أجله « الشارب اللطيف » باحترام كبير . وكان « الشارب اللطيف » خلاسياً مربوع القامة ، قبيح الشكل ، قدم

للغلام الوافد حديثاً سجائر وأعطاه شيئاً من عدته وارتاد المدينة معه وإثر ذلك ، اشتركا في سرقة حذاء جديد كان معروضاً في واجهة دكان في حي الكيدرجية . وقال « الشارب اللطيف »

- كن مطمئناً ، أنا اعرف أين يمكن أن نبيع هذا الحذاء

لقي « القط » نظرة على حذائه البالي

- كنت بالضبط أريد أخذ هذا الحذاء لي لقد بدأت احتاجه

- أنت ؟ أنا أرى أن حذاءك ما زال جيداً تماماً هكذا صاح « الشارب اللطيف » الذي كان نادراً ما يلبس حذاء ، وكان حافياً في ذلك الحين

- سأدفع لك ثمن حصتك ما رأيك ؟

ألقى « الشارب اللطيف » نظرة على رفيقه كان « القط » يلبس عقدة رقبة ، وسترة مرقعة ، وشيء هائل ! كان يلبس حذاء وجوربين

قال له « الشارب اللطيف » بابتسامة أنت تمارس الاناقة ، اليس كذلك ؟

- إني لم اولد لأحل هذه الحياة لقد ولدت لأعيش في العالم العظيم ، هكذا قال « القط » ، مردداً عبارة سمعها يوماً من جوّاب (بتشديد الواو) عاري ، في احدى حانات اراكاجو

مؤكد أن « الشارب اللطيف » كان يرى « القط » لطيفاً فاتناً كان هذا ذا هيئة برقة . ومع أن جماله لم يكن انثوياً ، فقد كان يروق لـ « الشارب اللطيف » الذي ، على كل حال لم يكن يروق للنساء كثيراً ، ذلك لأنه كان قصيراً ونحيفاً فكان يظهر أصغر بكثير من سن الثلاثة عشر عاماً ، التي هي سنه فعلاً . أما « القط » ، من جهته ، فكان طويل القامة ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وقد بدأ زغب ناعم ينبت على شفتيه ، وكان يعتني به كثيراً

ورأى « الشارب اللطيف » أن من الأفضل أن لا يسرع في التقرب الى الغلام ، لكي لا يثير خوفه لم يكن يعرف أي شيء عن « القط » ، ولم يكن يتصور أن هذا يدرك مقصده تماماً وأنه يتقرب له لكي يمسكه

سارا معاً هربياً من الليل ، وهما يبصران إلى أضواء المدينة . (كان « القط » مذهولاً في الواقع ، وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً ، عادا إلى المستودع وقدم « الشارب اللطيف » « القط » إلى بدرو ، واصطحبه - أي « القط » - إلى حيث ينام

- لدي غطاء هنا ، وهو كبير بحيث يتسع لنا نحن الاثنين

رقد « القط » وتمدد « الشارب اللطيف » إلى جانبه وحين ظن أن الآخر قد أغفى ،

احاطه باحد ساعديه، وبالساعد الآخر بدأ يلطف بتجريده من لباسه، وبحصة عين، نهض «القط» واقفاً

- انت غلطان يا حلاسي. فأنا رجل!

لكن «الشارب اللطيف» لم يبال باحتجاج «القط» لم يكن يرى سوى رغبته، رغبته في جسد «القط» الابيض الوردي، كان يريد أن يدس وجهه في شعر «القط»، وأن يحس صدره، حصره، وإليته (طبعاً!) فانقض عليه مصمماً على نصحه واغتصابه، لكن «القط» قاومه بشدة، ودفعه عنه بعيداً، فانبطح «الشارب اللطيف» على وجهه وكان العلمان قد احتمعوا حول الصبيين المتصارعين

- لقد اعتبرني «موضوعاً قابلاً» بلوطه. اليك عني يا عـ... !

وجر «القط» عصاه «الشارب اللطيف» نحو زاوية أخرى، وأخذه إلى النوم. وبقي الغلامان متخاصمين بعض الوقت، ثم تصالحا والآن حين كان «القط» يمر من صدقة صغيرة، كان يعطيها الى «الشارب اللطيف»

في إحدى الليالي، كان «القط» يتنزه في شارع المومسات، وكان شعره يلمع بربابتين رخيصين، وعقدة الرقبة معقودة حول عنقه، وهو يصفر كأنه أحد عمال مدينة المعسودين. كانت النساء ينظرن اليه ويضحكن

- انظروا الى هذا الديك الصغير. عن اي شيء جاء يبحث هنا؟

كان القط يرد على الابتسامات، ويتابع طريقه

كان ينتظر أن تدعوه احداهن ليمارس معها الحب. لكنه لم يكن يريد أن يجامعها لقاء نقود يدفعها لها. ليس فقط لأن ثروته لم تكن تتجاوز الألف وخمسمئة «ريس»، بل أيضاً لأن «فرسان الرمال» لا يحبون دفع المال للنساء. وكان لديهم الزنجيات الصغيرات في سن السادسة عشرة، اللواتي كانوا يجامعونهن على الرمال

لم يكن هناك بحث للشك. فالنساء كن يهمسن بوجهه الصبياني. كن يردنه ومنهن في صدره تماماً، ويحسن أن يمارس الحب معه. لكنهن لم يكن يدعونه لأن الوقت كان وقت التسكع في الدروب، وفي غد، لعد. لذلك كن يكتفين بالضحك والمرح. وكن متأكدات من أنه سيصبح يوماً من الايام احد اولئك العواديين الذين يملأون حياة المرأة، ياخذون منها، ويضربونها. لكنهم يحبونها ايضاً كثيراً من الحب. كثيرات منهن حسن ان تكون المرأة الأولى لهذا الشقي الشاب. لكن الساعة كانت العاشرة وهي ساعة الرجال الذين يدفعون المال. وكان «القط» يسير من ساحة إلى أخرى، بلا جدوى. وحينئذ لمح «دالها» القادمة من الشارع، غارقة في معطف من الفرو، بالرغم

من هذه البيئة الصيفية. وتجاوزته دون أن تراه تقريباً. كانت امرأة في حوالي الخامسة والثلاثين، ملتفة الجسم بل بدينة، وذات وجه شهواني جداً. وسرعان ما اشتهاها «القط» فتبعها، ورآها تدخل إلى بيتها دون أن تلتفت اليه. وبعد لحظة، ظهرت من النافذة. وصعد «القط» إلى الشارع، ثم هبط عائداً، لكنها لم تمنحه أية نظرة. ثم مر رجل عجوز، ودعته، فصعد إلى بيتها. وواصل «القط» الانتظار، لكنها، حتى بعد خروج العجوز مسرعاً، ساعياً لأن لا يراه احد، لم تعد الى النافذة

وطوال عدة ليال، كان «القط» يعود الى نفس المكان في الشارع، لمجرد أن يراها فقط. والآن، أصبح كل المال الذي يحصل عليه «القط» من السرقات والاحتلاس ينفقه على شراء بدلات مستعملة، لتبرز اناقته. كان يصفف شعره بانتباه (الاوبانش) الكامنة كثيراً في طريقة المشي، وامالة القبعة، وربط عقدة الرقبة بصورة مهمة. فيه ميل للملابس بحد ذاتها. كان «القط» يشتهي «دالها» بنفس الطريقة التي يشتهي بها الاكل حين يجوع، والنوم حين ينعس. وكان قد كف عن الاستجابة لدعوات النساء الاخريات، اللواتي بعد أن حصلن على معروف لعدة، أصبحن يردن لأن ممارسة الحب مع هذا الغلام الشقي. مرة فقط حق واحدة منهن وذلك فقط بقصد الاستعلام عن حياة «دالها». على هذا النحو علم من تلك المرأة أن «لدالها» عشيقاً، وهو عارف تماماً في احد المقاهي، وكان يأخذ منها النقود التي تكسبها. وكان أيضاً يسكر في بيت عشيقته سكراً شديداً بحيث كان يفقد صوابه جميع مومسات المدينة

كان «القط» يعود كل ليلة ويمنحه «دالها» بدأت به نظرة وهو كان جاهلاً يردد. كان يمضي وقته في انتظار معين، حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، وحين كان عارف يأتي، تغلق «دالها» من النافذة، ثم يدخل بيت، تنطفئ الاضاءة. حينئذ كان «القط» يعود الى المستودع، والافكار تغلي في رأسه. وبعد شهر عرف شيئاً لم يأت في احدى الليالي، وعلم أنه مات، لقد كان ضعيفاً، وبعده لن يستطيع أن يتحمل قوة «القط» الذي هو في الرابعة عشرة من العمر، وبدأ الاعلام على المومس التي كان يجمعها تحت قميصه

وفي احدى الليالي، لم يحضر عارف الى البيت. في اول الليل، هبطت «دالها» الى الشارع على رجليها. كالمحمومة. وعادت في ساعة متأخرة إلى بيتها. ولم يصل أي رجل. وراقبت النافذة. رغم أن الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً كانت قد دقت. صدر عنها وشك حلا الشارع من المارة، ثم لم يبق أحد ما عند «القط» في الشارع. وكانت «دالها» التي كانت ما تزال تنتظر في النافذة. كان «القط»

نعم أن هذه الليلة هي ليلته، وأحس بالسعادة وفقدت «دالفا» كل أمل بحضور عشيقها عارف الناي حينئذ راح «القط» يخطر ذهاباً وإياباً في الشارع. إلى أن لاحظته المرأة، وأومأت له فاقترب فوراً، وابتسم لها

ألست الديك الصغير الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع؟

ـ أن الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع هو أنا أما قصة الديك الصغير هذه

ابتسمت المرأة في أسى وقالت «قطة».

ـ هل تريد أن تؤدي لي خدمة؟ سوف أعطيك شيئاً ما ثم فكرت اثر ذلك، وقامت بإيماءة

ـ لا، لا بد وأنك تنتظر صديقتك، ولن تريد أن تضيع الوقت

ـ بل ستضيع الآن لتي انتظرها لن تأتي بسرعة

ـ إذن، أريد يا غلامي الصغير، أن تذهب إلى شارع روي ـ باربورا، الرقم ٣٥ اسأل عن السيد غاستون إنه في الطبقة الأولى قل له أنني في انتظاره

ذهب «القط» وهو يحس بالارتياح وفكر في البدء بأن لا يذهب، وبأن لا يعود إلى الزاوية «دالفا»، لكنه اثر ذلك قرر أن يذهب، لكي يرى عن قرب أكثر، هذا الذي سيحاسر على التخلي عن امرأة جميلة جداً مثل «دالفا» ووصل إلى البناية (وهي عمارة سوداء، مؤلفة من عدة طبقات)، وارتقى السلم، وفي الطبقة الأولى، طلب إلى غلام كان راقداً في الرواق أن يدله على غرفة السيد غاستون فأشار الصبي إلى الباب الأحمر ودق «القط» الباب ففتحه عارف الناي، كان في اللباس الشعبي، وفي السرير، لاحظ «القط» امرأة عجوزاً وكان كلاهما ثملين وقال «القط»

ـ أنا قادم من عند «دالفا»

قال عارف الناي: دعي السلام لقد فرغت منها

ووضع الرجل يده مفتوحة على عنقه وقالت امرأة من داخل الغرفة:

ـ من هو هذا الغلام الجميل؟

أجاب عارف الناي ـ لا تتدخلي أنت

ثم أضاف بسرعة

ـ إنها رسالة من تلك المومس «دالفا» العجوز إنها تكاد تموت لكي أعود إليها

ضحكت المرأة ضحكة سكرى ثم نهضت وقالت

ـ أما أنت فلم تعد تريد الآن سوى حبيبتك الصغيرة «بيبي»، أليس كذلك؟ تعال وأعطني قبلة، أيها الملاك بدون أجنحة

ضحك عارف الناي هو أيضاً وقال

ـ أرأيت أيها الرجل الصغير؟ قل هذا لـ «دالفا»

ـ رأيت في الواقع أنها (يقصد المرأة المخبلة) جلد جاف، مثل عصا يابسة. أجل يا سيدي، يا للمعات الأسود الذي التقطته، أليس كذلك، أيها الرفيق

ـ لا تتكلم عن خطيبتي

أجابه عارف الناي بلهجة جديدة

ثم سارع إلى القول

ـ أتريد أن تشرب كأساً؟ إنه كحول قصب السكر وهو ممتاز دخل «القط»

وعضت المرأة التي على السرير خدها واستغرق عارف الناي في الضحك

ـ إنه فرخ حمام صغير، فقط لا تخافي

وقال «القط»، ومع ذلك، فهذا الجلد اليابس لا يغريني أبداً في الحقيقة، كلا. إنه لا يغريني إطلاقاً

واحتسى «القط» كأس الخمرة المصنوعة من عسل قصب السكر. كان عارف الذي قد تمدد على السرير، وراح يقبل المرأة ولم يلاحظ العشيقان أن «القط» انصرف، حاملاً محفظة المومس، التي كانت موضوعة على الكرسي، فوق الملابس وفي الشارع، أحصى «القط» ٦٨ ألف رييس ووضع النقود في جيوبه وألقى بالمحفظة عن الدرج ومضى وهو يصفر نحو بيت «دالفا»

كانت «دالفا» تنتظره في النافذة وثبتت «القط» بصره فيها.

ـ لقد جئت

ودخل دون أن ينتظر الجواب. ومن الرواق، سألته «دالفا»

ـ ماذا قال؟

ـ سأقول لك في الغرفة دليني على غرفتك

دخلا إلى الغرفة كان أول شيء رآه «القط» هو صورة فوتوغرافية لغاستون وهو يعزف على الناي، ويرتدي ثوب سموكنغ وجلس «القط» على السرير، وراح ينظر إلى صورة غاستون كانت «دالفا» تحدق النظر إليه، مذهولة، واستطاعت بصعوبة أن تسأله مجدداً.

ـ ماذا قال؟

أجاب « القط »

- اجلسي هنا. وأشار الى السرير

وهمست قائلة هذا الديك الصغير

- اسمعي، يا أرنبي الصغير لقد أهملك وتعلق بامرأة أخرى. أتدرين؟ لكني سأبقى لأشتري معاً. ثم نتفت ريش الطاووس المحور ودس يده في جيبه، وأخرج النقود

- سوف نتقاسم هذه النقود

- إنه مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟ لكن سيدي بونفيم سيجعلها مشلولين كليهما. إن قديسي هو سيد بونفيم. إنه سيدي

وتوجهت نحو صورة القديس، ولمسته بأصبعها، وعادت

- حفظ سعودك لقد كسبتها عن حق

وأردف « القط » قائلاً اجلسي هنا وعانقها، وألقاها على السرير. ثم راحت تئن من شدة، وتحت وقع الصفعات التي كان يسددها إليها، قالت هامسة

- هذا الديك الصغير هو رجل حقاً

نهض « القط »، وسوى بنطاله، واتجه نحو موضع الذي فيه صورة غاستون غارف اسدي، ومرقها

- سوف نلتقط صورة لي، لكي نضعها هنا، مكان صورة غاستون. راحت المرأة تضحك، وقالت

- تعال الى هنا، يا أرنبي السكري. يا لك من شقي، ستكون ... سوف أعلمك أشياء كثيرة، يا ديكي الصغير

وأقفلت باب الغرفة، وخلع « القط » ملابسه

* * *

وهكذا كان « القط » يذهب كل مساء عند منتصف الليل، ولا ينام في المستودع وكان لا يعود إلا في صباح اليوم التالي، للذهاب مع صحبه لآخرين للقيام بمغامرات النهار اقترب ذو الرجل الرخوة، وقال مازحاً

- لأن سوف نربيا الختم، أليس كذلك؟

- هذا لا يعنيك

كان « القط » يدخن سيجارة

- هل تريد أن تأتي لترى ما إذا كان يمكنك أن تقوم بضربة؟ يا لك من شخص خائب!

- إني لا أريد تجريب الجلود. إني أعرف أين أعثر على الأشياء ذات القيمة

لكن « القط » لم يكن يرغب في أن يدردش، وتابع « ذو الرجل الرخوة » جولته في أنحاء المستودع

... ذو الرجل الرخوة » في الحديث وترك الوقت يمر. ورأى « القط » يخرج حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف واسم لأنه غسل وجهه، ودهن شعره بالبريانتين، وسار بمشية مرتبكة التي يسير بها الأشقياء والبحارة. وإثر ذلك، ظل « ذو الرجل الرخوة » وقتاً طويلاً ينظر إلى الأولاد النائمين. كان هناك حوالي خمسين ولد، بدون آباء ولا أمهات وبدون أسياد عليهم. ولم يكن لديهم حرية عدا حرية التسكع في الشوارع. وكانوا يعيشون حياة محفوفة بالمخاطر دائماً ويعثرون على ما يأكلون وعلى ما يلبسون، ... بحمل حقيبة، أو باختلاس محافظ وقبعات، أو بتهديد الناس أو أحياناً باستجداء الصدقة. وكانت جماعة تضم ما يزيد عن مئة ولد، ذلك لأن كثيرين منهم لم يكونوا ينامون في المستودع، بل كانوا ينتشرون تحت أسوار بوابات السحب، وتحت الجسور، وفي الزوارق المقلوبة على رمال مرفأ الخشب، ولم يكن أحد منهم يشكو. وأحياناً كان يموت ولد منهم بمرض لم يعرف علاجه أحد. وحين كان يأتي الأب خوزيه بيدرو أو الماي - دي سانتو دون أنيبال، أو أنصاف المحتالين من سوق الطيب. كان المريض يحصل على دواء. بيد أن تلك الحال لم تكن عن حرية تولد لدى يعيش في بيته. كان « ذو الرجل الرخوة » يفكر. فكان يرى أن حياة هذه الحرية صغيرة جداً مقابل بؤس هذه الحياة

حين سمع حركة، توقف في وسط مشيه. كان ينهض شخص ما. وعرف « ذو الرجل الرخوة » فيه الزنجي الصغير باروندادو، الذي كان يتجه بخطى حذرة نحو الرمال، خارج المستودع. وظن « ذو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي سوف يجيء شيئاً ما، مريباً، ولم يكن يريد أن يطيع صحبه عليه. وكان هذا جريمة ضد قوانين العصابة تمشي « ذو الرجل الرخوة » وراء باروندادو، وهو يشق طريقه بين الصبيان النائمين. كان الزنجي الصغير قد خرج الى الباب وراح يدور حول المبنى من ناحية البحر. هناك في الأعلى، كانت السماء امتلأت بالنجوم. ولأن باروندادو يحث خطاه، ولاحظ « ذو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي كان يتجه نحو زاوية المستودع الأخرى، هناك حيث كان الرمل أكثر نعومة. فاتجه عندئذ في الاتجاه المعاكس ووصل في الوقت المناسب كي يرى باروندادو يصطدم بشخص آخر. وقد عرفه على النور. كان هو « ليرو »، أحد أفراد العصابة، وعمره ١٢ عاماً، وهو ولد بدين وكسول. واستطاع « ذو الرجل

الرخوة» أن يلتقط بعض العبارات. كان أحدهما يقول: «يا غلامي الصغير، يا غلامي الصغير». تراجع «ذو الرجل الرخوة»، وازداد قلقه. كان الجميع يسعون إلى المداعبة، وشيئاً غريباً عن هذه الحياة. الاستاذ في كتبه التي كان يقرأها طوال الليل، و«القط» في سرير امرأة عاهرة تنفق عليه، و«سكر الشعير» في الصلاة التي كانت تعمر شكله وهيئته، و«رامداو والمبروك» في خصب، على رمال الساحل. وأحس «ذو الرجل الرخوة» بأن القلق مستول عليه، وأنه لا يستطيع أن ينام. فلو نام، فإن جميع كوابيس السجن ستعود اليه لتملأ نفسه رعباً. كان يتمنى بشدة أن يظهر شخص ما، يستطيع هو، أي «ذو الرجل الرخوة»، أن يعذبه بالمحبوبة منه. وكان يتمنى أن يغوص شجراً. وفكر خطة في أن يغرس عود ثقاب على ساق أحد الصبيان الراقدين. لكنه حين نظر إلى باب المستودع، لم يعد يشعر إلا بنعم زبرعة بجنونه في العزر. وخرج راكضاً عبر الرمال، ركض كيفما اتفق، هارباً من قلقه. وأيقظت بيدرو بالا صيحة قريبة جداً منه. ورأى ولداً ينهض ويقترب باحتراس من الزاوية التي كان يرقد فيها «سكر الشعير». وفي نصف الإغماءة الذي كان فيه، حسب بيدرو بالا أن الأمر يتعلق بحالة لواط. وظل منتبهاً لكي يطرد الغلام المتسلل بنواط من العصابة، لأن أحد قوانين هذه العصابة كان عدم القبول أبداً بوجود لواطي سلبي في صفوف الجماعة لكنه استسقط تماماً. وسرعان ما تذكر أن هذا مستحيل، ذلك لأن «سكر الشعير» لم يكن من هؤلاء. إذن، لا بد أن المسألة تتعلق بسرقة. وفعلاً كان الولد قد فتح حقيبة «سكر الشعير». فانقض بيدرو بالا عليه، كان الصراع سريعاً. استيقظ «سكر الشعير» لكن الآخرين كانوا نائمين.

- هل تقوم بايجاد صاحب لك مجدداً؟

ظل الآخر صامتاً، وهو يحك ذقنه المجروحة. تابع بيدرو بالا كلامه قائلاً:

غداً سوف تنصرف من هنا. لم أعد أريدك معنا. انصرف مع صبيان ايركيبل، الذين يقضون الوقت يسرق بعضهم البعض الآخر.

- كنت اريد فقط أن ارى.

- ماذا كنت تريد أن ترى بحقك؟

أقسم أنني كنت اريد فقط رؤية هذه المدالية التي لديه.

- رتب قصتك كما يحلو لك. و اعتبرت بك عقاباً شديداً.

وتدخل «سكر الشعير»:

- دعه يا بيدرو. فكر تماماً أنه كان يريد فقط أن يرى مداليتي. إنها مدالية

أعطاني إياها الاب جوزيه.

- نعم، هذه هي الحقيقة. كنت أريد أن اراها فقط.

لكنه كان يرتعش من الخوف. كان يعرف أن حياة مطرود من بين فرسان الرمال تصبح صعبة. فهو إما أن يدخل في عصابة ايركيبل التي تقضي اوقاتها في السجون، أو أنه ستنتهي به الامر إلى دخول الاصلاحية.

تولى «سكر الشعير» الدفاع عنه مجدداً، وعاد بيدرو بالا إلى قرب الاستاذ. وحينئذ قال الصبي، وصوته ما زال مرتجفاً:

- سأقول لك كل شيء لتعرف. إنها فتاة صغيرة رأيتها اليوم. كانت في مدينة «باي». وكنت قد دخلت إلى منزلهم لأسرق صدرة، حين وصلت وسألتني عما أريد. حينئذ رحنا ندردش. وقلت لها انني في الغد سأحضر لها هدية. لأنها كانت لطيفة، لطيفة جداً معي. هل فهمت؟

والآن أخذ يصيح بشدة، حتى ليظن أنه مسعور.

ناول «سكر الشعير» المدالية التي اعطاها له الأب جوزيه، وراح يتأملها باعجاب وفحاة، مدها نحو الغلام الصغير.

- خذ. اعطها لها. ولكن لا تقل شيئاً لبيدرو بالا.

دخل «الكوع الماسي» إلى المستودع في حين كان الفجر يشرق. ونور ابيض يجتاح عمق السماء. وكان شعر حلاميي سيرتاو [٥] منتفشاً نحو الأعلى. وكان يرتدي بحذاء قماشي للرياضة، مثله يوم نزل من «الكاتنغا»[٦] وينعكس وجهه القاتم في داخل لبسي. وخطا فوق جسم الزنجي جواو غراندي، وتقدم إلى أبعد، وأمر رجله فوقه كي يجس صحيفة مشدودة إلى صدره. وشمل القاعة كلها بنظرة، كأنه كان يبحث عن شخص ما. وما أن تبين الموضع الذي يوجد فيه «الاستاذ» حتى أخذ الصحيفة بين يديه لحشي الكبيرتين. ودون أن يولي اهتماماً بوقت غير الملائم، اتجه نحوه صائحاً:

يا «استاذ»، يا «استاذ»!.

- ماذا هناك؟

كان الاستاذ شبه نائم.

أريد شيئاً ما.

(٥) سيرتاو: داخل البرازيل

(٦) «الكاتنغا»: منطقة صحراوية في «سيرتاو» (داخل البرازيل) مغطاة بالصبار

خسر « الأستاذ » وكان وجه « الكوخ اليابس » القاتم غير مرئي تقريباً في الظلام.

- أهذا أنت أيها « الكوخ اليابس »؟ ماذا تريد؟

- أريد أن تقرأ لي أخبار لامبياو[7] الواردة في « الكونتيديان » (الجريدة اليومية) ويوجد صورة له أيضاً

- دع الصحيفة لكي أقرأها غداً.

- اقرأها اليوم، وأنا، سوف أعلمك غداً كيف تحاكي زقزقة الكناري تماماً

بحث « الأستاذ » عن شمعة، وأشعلها، وراح يقرأ مقال الصحيفة. لقد دخل لامبياو إلى إحدى قرى ولاية باهيا، وقتل ثمانية جنود، واغتصب عدة فتيات، ونهب خزائن المحافظة. وأضاء وجه « الكوخ اليابس » القاتم وانفتح بابتسامة فمه المطبق. كان سعيداً حين ترك « الأستاذ » الذي أطفأ الشمعة متوجهاً نحو زاويته وأخذ معه الصحيفة لكي يقتطع صورة عصابة لامبياو. وفي روحه كان يتصاعد نهار ربيعي.

* * *

(٧) لامبياو: قاطع طرق برازيلي شهير (ملاحظة من المترجم)

باب البحر لابورتا دو مار

انتظروا رحيل الشرطي. وتوقف هذا متفحصاً السماء، باحثاً بنظره في الشارع المقفر، واختفى الترام عند المنعطف. كان هو، في هذه الليلة، آخر ترام على خط بروتاس. أشعل الشرطي سيجارة. وبسبب الريح التي كانت تهب، أشعل هذا ثلاثة عيدان. ثم رفع ياقة معطفه ليقي جسمه من البرد الرطب الذي كانت الريح تحمله من المزارع التي تتأرجح فيها أشجار المانغا والزعرور الأميركي. انتظر الفتيان الثلاثة رحيل الشرطي لكي ينتقلوا إلى الجانب الآخر من الشارع وليدخلوا إلى الدرب المسدود غير المبلط. ولم يستطع « حبيب الله الطيب » الحضور. فقد قضى طوال فترة بعد الظهر في « بورتا دي مار » ينتظر الرجل الذي لم يحضر. ولو حضر هذا الرجل، لكان ذلك سهلاً، ذلك لأنه مع « حبيب الله الطيب » ـ الذي كان يدين له بشيء كثير ـ لم يكن بحاجة لنقاش. لكن الرجل لم يأت؟ كان لنا كاذباً بالتأكيد. وعلى « حبيب الله الطيب » أن يعود لسهر هذه الليلة بالذات. كان ذاهباً إلى ايتاباريكا، منذ فترة بعد الظهر، نحو أرض صغيرة كانت موجودة في عمق « بورتا دي مار » (باب البحر). كان « القط » يهيء نفسه ليصبح بعد حين مصارعاً قادراً على أن يجابه « حبيب الله الطيب » بالذات.

أما بيدرو بالا، هو أيضاً كان يكشف عن استعدادات كثيرة. وأقل الثلاثة رشاقة كان جواو غراندي، لكنه كان ممتازاً في معركة يستطيع أن يستخدم فيها قوته البدنية الخارقة. وحتى في جسمه الناشئ، كان على مقدرة كافية للتخلص من خصم أقوى بأساً منه. وحين تعبوا، دخلوا إلى الحانة وطلبوا أربعة كؤوس من النبيذ. وأخرج « القط » ورقة نقد من جيبه، وهو ورق نقد مدهش، دقيق، ذو أوراق جديدة. كان « حبيب الله الطيب » يؤكد بأن الرجل سيحضر. إن الرفيق لدى المعلم الناس ـ أي « لحبيب الله الطيب » ـ كان شخصاً موثوقاً به. كانت هذه الصفقة ستعود بمكاسب كثيرة. و« حبيب الله الطيب » كان يفضل أن يساعده « فرسان الرمال » أصحابه، الذين هم أفضل من زعران المرفأ. كان يعرف أن « فرسان الرمال » هم أفضل من رجال كثيرين

وانهم يخصصون السهر جيداً. كان «ناب البحر» مقفراً تقريباً في هذه الساعة. كان هناك فقط بحاران غضبيان السيرة في داخل الحانة، وهما يدردشان. وضع «القط» ورق اللعب على الطاولة وقال:

- من الذي يشاركني في جولة؟

تناول «حبيب الله الطيب» ورق اللعب وقال: إنه أكثر من مغشوش بعلامات خاصة، يا صديقي «القط». إنها لعبة مغشوشة تماماً، ومفضوحة تماماً أيضاً.

- إذا كان لديك ورق غيره، فهذا سيان بالنسبة لي.

- كلا. فلنلعب بهذا الورق.

بدأوا باللعب. كشف «القط» عن ورقتين على الطاولة، وأخذ الآخرون يراهنون على واحدة منها. وكان البنك (مال المقامرة) مع الثانية. نادي به... كسب بيدرو بالا، و«حبيب الله الطيب». ولم يشترك في اللعب جواو غرانديي (كان يعرف جيداً تلاعب «القط» بالورق)، كان يكتفي بالتفرج، ضاحكاً بكل أسنانه البيضاء حين كان «حبيب الله الطيب» يقول إن الحظ يحالفه هذا النهار لأنه عيد كاسيمو، شفيعه. كان يعرف من جهته أن الحظ لا يبتسم إلا في البداية، وأنه حين يبدأ «القط» بالكسب، فلن يتوقف بعد ذلك أبداً. وفي فترة معينة، بدأ «القط» يكسب. وبعد الانتصار الأول، قال بصوت حزين بعض الشيء:

- لقد حان الحين تماماً. إن معي أوراقاً ممتازة وحق الشيطان!

وسّع جواو غرانديي ابتسامته أكثر أيضاً. وكسب «القط» كذلك. نهض بيدرو بالا ووضع في جيبه النقود التي كسبها. ونظر «القط» إليه في قلق:

ألن تضع شيئاً أيضاً؟

- الآن لا. أنا ذاهب لأبول.

واتجه نحو عمق الحانة. واستمر «حبيب الله الطيب» يخسر. كان جواو غرانديي يضحك، وكان لاعب الكاموبيرا يسهر. وعاد بيدرو بالا، لكنه لم يعد إلى اللعب. كان يضحك مع جواو غرانديي. وتخلى «حبيب الله الطيب» عن كل ما كسب، وقال جواو غرانديي من بين أسنانه:

- سوف يمس الرأسمال.

ولاحظ «القط» قائلاً: ما زلت الخاسر. ولاحظ عودة بيدرو فقال له:

- ألم تعد تقامر بشيء؟ أفلا تراهن على «الست الساقي»؟

- لقد فرغت من المقامرة.

وغمز بيدرو بالا «القط» كأنه يطلب منه أن يكتفي بـ«حبيب الله الطيب». تخلى «حبيب الله الطيب» عن خمسة آلاف «رييس» كصندوق. ولم يكن قد كسب سوى مرتين أثناء الجولات الأخيرة. وبدأ يحذر. ونشر «القط» الأوراق على الطاولة، وقدم منكبه وسعه وسأل:

- من يلعب؟

لم يجب أحد. ولا حتى «حبيب الله الطيب» الذي كان يراقب الورق بعين حذرة. وسأل «القط»:

- هل تعتقد أنه يوجد غش؟ تستطيع أن تنظر إلى اللعب بصورة نزيهة.

تفجر جواو غرانديي في إحدى ضحكاته الفاضحة. وشاركه في الضحك بيدرو بالا و«حبيب الله الطيب». وألقى «القط» نظرة مسعورة نحو جواو غرانديي:

هذا الزنجي بعد يعقل مثل جحش. أفلا ترى إذن

لكنه لم يكمل عبارته. لأن البحارين اللذين كانا يراقبان اللعب منذ حين اقتربا من جانبهم، وقال الأصغر، الذي كان ثملاً، لـ«حبيب الله الطيب»:

هل نستطيع الدخول في هذه اللعبة الصغيرة؟

أشار «حبيب الله الطيب» إلى «القط» قائلاً: الصندوق هو مع هذا الفتى.

نظر البحاران إلى الغلام في حذر وريبة. لكن أصغرهما بكز الآخر بكوعه هامساً بشيء كثير في أذنه. وفرح «القط» في دخيلته، لأنه كان يعلم أن الآخر يقول له من سهولة الاستيلاء على نقود هذا الولد. وجلس البحاران معاً إلى الطاولة. ودهش «حبيب الله الطيب» لرؤية بيدرو بالا يجلس هو أيضاً إلى الطاولة. ومن جهة أخرى، فإن جواو غرانديي ليس فقط لم يندهش، بل إنه جلس إلى الطاولة هو أيضاً. كان يعلم أنه يجب مواجهة البحارين. وإن من الضروري لأجل هذا أن يخسر فتيان العصابة هم أيضاً. وبدأ البحاران يربحان، في البدء، كما حدث ذلك لـ«حبيب الله الطيب». لكن رياح الحظ تحولت بسرعة وبسرعة كان «القط» هو وحده الرابح. وكان بيدرو بالا يطلق ضحكات تعجب:

- هذا «القط» حين يحالفه الحظ، تصعب مواجهته.

وردد جواو غرانديي: وكذلك حين يأخذ في الخسارة طوال الليل.

عندئذ أوحى بالكثير من الشفقة إلى البحارين حول براعة اللعب، وإمكانات الحظ في السحوب. فتابعا اللعب والخسارة. وكان أصغرهما يقول فقط: لا بد وأن يدور الحظ! لكن الآخر وهو ذو شارب صغير، يلعب في صمت، وكان في كل مرة يزيد

رهانه وبيدرو مالا، هو أيضاً كان يزيد قيمة رهاناته. وفي لحظة معينة، التفت الرجل ذو الشارب الصغير نحو «القط»:

- هل يسير الصندوق بخمسة آلاف؟

حك «القط» شعره المدهون ببريانتين رخيص، مظهراً عدم اهتمام كان رفاقه يعلمون بأنه مجرد شيء شكلي.

- اتفقنا. أنا ألعب لا لشيء إلا لكي أتيح لك تعويض خسارتك.

راهن البحار ذو الشارب الصغير بخمسة آلاف «ريس». وقدم الصغير ثلاثة الاف. وراهن كل منهم على «آس» مقابل خادم الصندوق. كذلك راهن على الآس، بيدرو مالا وجواو غراندي. وأخذ «القط» يقلب الأوراق. كانت الورقة الأولى سبعة. كان البحار الصغير يدق بأصابعه على الطاولة، والآخر يشد شاربه الصغير. ثم جاءت ورقة «ثمان»، وقال البحار الأصغر:

- الآن، الآس. الثمان، بعد واحد.

وراح يدق الطاولة بأصابعه.

ولكن جاءت سبعة، ثم عشرة. وحينئذ جاء خادم. وصفق «القط» الطاولة، في حين كان بيدرو مالا يظهر هيئة سأم عميق، وقال:

- غداً، حين سوف يتولى عنك النحس، وسوء الحظ، سترى إذا كنت لن أغلبك.

وعرف البحار الأصغر بأنه خسر كل شيء. وحيّا البحار الآخر ذو الشارب الصغير حيويته.

- لم يعد لدي سوى بضعة «ريسات» لأدفع ثمن البيرة. الغلام لاعب ماهر.

نهض البحاران، وودعا أفراد العصابة، ودفعا ثمن البيرة، التي شرباها على الطاولة الأخرى. ودعاهما «القط» للعودة في يوم آخر. فأجاب الأصغر بأن سفينتهما ستبحر هذه الليلة بالذات نحو كاراكاس. فسيعودان بعد الأيام فقط. وانصرفا يمسك أحدهما خصر الآخر، وهما يعلقان على النحس الذي أصابهما.

وقدر «القط» مبلغ الكسب. وبدون حساب النقود التي خسرها بيدرو مالا وجواو غراندي، بقي هناك ربح يبلغ ٣٨ ألف «ريس». وأعاد «القط» إلى بيدرو مالا نقوده، ثم إلى جواو غراندي. وفكر برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج الخمسة آلاف «ريس» التي كان «حبيب الله الطيب» قد خسرها قبلاً.

- خذ يا أبله. عندك عش. أنا لا أريد أخذ نقودك.

قبل «حبيب الله الطيب» الورقة المالية بسرور، وربّت على ظهر «القط».

- سوف تذهب إلى بعيد، يا صديقي. وستستطيع أن تكسب ثروة من ألعاب الغش هذه.

لكن الشمس كانت قد غربت، والرجل المنتظر لم يأت. وطلبوا كأساً أخرى من النبيذ. ومع الغروب، ازدادت الريح القادمة من البحر شدة. وبدأ «حبيب الله الطيب» يفقد صبره. وكان يدخن سيجارة وراء سيجارة. وكان بيدرو مالا يرصد الباب. وقسم «القط» الثمانية والثلاثين ألف «ريس» على الثلاثة، وسأل «جواو غراندي»:

كيف سيتدبر «ذو الرجل الرخوة» أمره في سرقة القبعات؟

لم يجب أحد. كانوا ينتظرون الرجل. والآن أصبح لديهم انطباع بأنه لن يأتي. إن السر لم يكن سوى شيء في الحقيقة. ولم يكونوا يسمعون الأغنية القادمة من البحر. كان «باب البحر» (بورت دي مر) مقفراً، والأب منكب بحسابه على طاولته. لكن القاعة سوف تمتلئ بعد قليل، وحينئذ لن يكون ممكناً أي اتفاق مع الرجل وسط هذا الجو الصاخب. وهو لن يقبل أية محادثة هنا، في هذه القاعة التي تغص بالزبائن، فيمكن أن يتعرف إليه الناس، وهو لم يكن يريد ذلك، كما أن «فرسان الرمل» هم أيضاً لا يريدون. وفي الواقع، كان «القط» لا يعرف حقيقة المسألة، كما لم يكن يعرفها «بيدرو مالا» و«جواو غراندي». كانا يعرفان فقط ما يعرفه «حبيب الله الطيب» الذي عرضت عليه الصفقة التي قبلها من أجل بيدرو مالا و«فرسان الرمل».

وعلى كل حال، فهو نفسه لم يكن يملك سوى معلومات غامضة. وكان ينبغي أن يطلعهم الرجل على معلومات. وقد حدد لهم موعداً في فترة بعد الظهر، في «باب البحر». لكنه حتى الساعة السادسة لم يظهر له أثر. وقد جاء بدلاً عنه الرجل الذي تحدث إلى «حبيب الله الطيب». وقد وصل بالضبط حين كانت العصابة تغادر. وقد أوضح هذا أن الرجل لم يستطع المجيء، لكنه سينتظر «حبيب الله الطيب» في المساء، في الشارع حيث يسكن. وسوف يأتي حوالي الساعة الواحدة فجراً. وأعلن «حبيب الله الطيب» أنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك، لكنه يسلم المسألة لـ«فرسان الرمال» ويضعها في أيديهم. وتفحص الوسيط الأولاد بحذر، وسأله «حبيب الله الطيب»:

- ألم يسبق لك أن سمعت الحديث عن «فرسان الرمل»؟

- بلى. قبلاً، ولكن...

- على كل حال، إنهم هم الذين سيتولون المسألة إذن.

بدا الوسيط أنه يوافق. واتفقوا على اللقاء في الساعة الواحدة فجراً، وافترقوا وعاد «حبيب الله الطيب» إلى سفينته. و«فرسان الرمال» ذهبوا إلى المستودع، وختفى الوسيط في أرصفة الميناء. ولم يكن «ذو الرجل الرخوة» قد عاد بعد. ولم يكن هناك أحد في المستودع. لا بد وأنهم جميعاً منتشرين في شوارع المدينة، بحثاً عن عشاء وخرج ثلاثة في ذلك الحين، وذهبوا لتناول طعامهم في رستوران رخيص قائم في السوق. وعند مخرج المستودع، أراد «القط» المتهيج جداً نتيجة اللعب، أن يفركش بيدرو بالا، لكن هذا تلافاه وأوقع «القط» على الأرض.

- إني مدرب، أيها الأحمق الكبير.

ودخلوا إلى الرستوران محدثين ضجة، واقترب منهم في حذر عجوز كان هو النادل. كان يعرف أن «فرسان الرمال» لا يحبون الدفع. وأن هذا الشاب المشطوب الوجه، كان أخطر الجميع. ومع أنه كان هناك اشخاص كثيرون في الرستوران، لكن العجوز قال لهم:

- انتهى كل شيء. لم يعد لدي طعام.

- غير هذه الاسطوانة يا عم. نحن نريد أن نأكل.

وضرب جون غراندي على الطاولة بقبضته وقال:

- وإلا فسنقلب هذه الموائد كلها رأساً على عقب. حدق النادل العجوز فيهم، متردداً. وحينئذ رن «القط» بالنقود على الطاولة.

- اليوم، سنعطي نقوداً.

كانت هذه حجة حاسمة. وبدأ النادل يحضر الاطعمة: صحن من الساراباتيل [8] ثم صحن من «الفيجوادا» [9] و«القط» هو الذي دفع ثمن الطعام. وإثر ذلك، اقترح بيدرو بالا الذهاب نحو بروتاس، التي كانت تفصلها عنهم طريق طويلة، نظراً لأنهم سيسيرون نحوها سيراً على الأقدام.

وقال بيدرو بالا: لا حاجة لركوب الترام. والافضل أن لا يعرف أحد أننا ذهبنا إلى هناك.

حينئذ قال «القط» إنه سيأتي فيما بعد. وإنه سيلتقيهم هناك. كان لديه ما يفعله قبل ذلك. كان يريد أن يسمع «دالفا» بأنه لن يحضر اليها هذه الليلة.

(٨) ساراباتيل: اكلة مقبلات برازيلية مصنوعة من كروش الخنزير وشحمه.

(٩) الفاجوادا: وجبة وطنية برازيلية مصنوعة من اللوبياء السوداء، بشحم الخنزير واللحم.

والآن وصلوا إلى هناك، إلى محطة «بيتاغيبرس»، منتظرين رجل الشرطي كانوا مختبئين في ظل بوابة كبيرة، ويلزمون الصمت. كانوا يسمعون صوت طيران الخفافيش التي كانت تهاجم على الاشجار حبات الرعرور الأميركي الناضجة. وفي انتهاء عادة الشرطي. وبقوا في وضع المترقب حتى اختفى شبحه عند المنعطف. وحينئذ اجتاز هذا المنعطف، ودخلوا إلى جادة المزارع، حيث اختبأوا تحت سقيفة.

لم يتأخر الرجل البتة. وقد قفز من سيارة تكسي عند زاوية الشارع، ودفع أجرة الركوب، وجاء. صعد الجادة. كان يسمع فقط صوت حذائه، وحفيف الاوراق التي يهزها الهواء على الأشجار. وحين اقترب منهم كفاية، خرج بيدرو بالا من تحت السقيفة. وسرع الآخرون للحاق به، وأحاطوه، مثل حراس أقوياء، يعرفون مهمتهم. واقترب الرجل من الجدار، المحاذي لخط سيره. واتجه بيدرو نحوه. وحين وصل إلى مستواه، توقف.

- هل يمكن أن تشعل لي هذه السيجارة أيها السيد؟

كان في يد بيدرو بالا سيجارة مطفأة. لم يجب الرجل بشيء. بل أخرج علبة الثقاب، وناولها للفتى. وأشعل بيدرو سيجارته، وأثناء اشعالها، حدق في الرجل ثم سأله وهو يعيد اليه العلبة:

- ألست انت المسمى جوين؟

- وسأل الرجل، لماذا؟

إن «حبيب الله الطيب» هو الذي أرسلنا. واقترب جواو غراندي و«القط»، وحدق الرجل فيهم مذهلاً.

- إنهم مجرد أطفال. والعمل الذي أنا في سبيله، ليس عملاً لأطفال.

- قل لنا ما هو؟ نحن نعرف أن نقوم بعمل مناسب، هكذا رد بيدرو بالا. في حين كان زملاؤه يقتربان.

- ولكن اذا لو كانت المسألة صفعة تحت أنه حتى الرجال.

ووضع الرجل يده على فمه مثل شخص قال كل شيء لديه، بل وأكثر.

نحن نعرف كيف نحتفظ بالسر، كما لو أنه كان في حرية مولاديه. و«فرسان الرمال» يفعلون دائماً عملاً متقناً.

- فرسان الرمال؟ هذه العصابة التي تتحدث عنها الصحف؟ أولاد مشردون؟ أهم انتم؟

- أجل، نحن. ونحن من الذين يقودون أولئك الأولاد.

بدا الرجل كأنه يفكر، وأخيراً قرر موقفاً، وقال: كنت أفضل أن أكلف رجالاً بهذا العمل، ولكن نظراً لأن الأمر يجب أن يجري في هذه الليلة بالذات، فالوسيلة

- سوف ترى كيف أننا نحسن العمل. لا تقلق

- تعالوا معي، ولكن دعوني أتقدمكم، واتبعوني ولكن على بعد خطوات مني

أطاع الأولاد، وتوقف الرجل المجهول عند حاجز فتحه، وهدأ ... ومن الداخل، جاء كلب ... يلحس يديه. وأدخل الرجل ثلاثتهم معاً، واجتازوا معه طريقاً تحف به الأشجار ثم فتح باب المنزل ودخلوا إلى غرفة صغيرة، ووضع الرجل معطفه وقبعته على كرسي، ثم جلس وظل الصبيان الثلاثة واقفين. وأشار الرجل إليهم بالجلوس، وبادىء بدء راحوا ينظرون في حذر إلى الفوتيلات الواسعة المريحة. ذلك على الأخص، كانت حالة بيدرو وجواو غراندي، ذلك لأن «القط» كان قد جلس على أحد هذه الفوتيلات جلسة مريحة، وإن كان قد حافظ على عبوسه. وبعد إشارة جديدة من الرجل، جلس بيدرو وغراندي، رغم أن جواو غراندي تعمد جلسة له على حافة المقعد، وكأنه كان يخشى توسيخه. كانت هيئة الرجل مرحة، مداعبة. وفجأة نهض، ناظراً إلى بيدرو، الذي أحس أن الرجل، أنه الزعيم (أي بيدرو)

- إن ما سوف تفعلونه هو صعب وسهل في وقت معاً. والآن، ما يلزم، هو أنه لا يجب أن يعرف أحد بما ستفعلون. لا أحد بالمرة. أجاب بيدرو بالا: كن مطمئناً نحن نعرف ما نعمل

أخرج الرجل ساعته من جيبه، وقال: الساعة الآن الواحدة والربع. إنه لا يعود إلا في الساعة الثانية والنصف

كان ما يزال ينظر إلى «فرسان الرمال» متردد

وأجابته بيدرو قائلاً

- إذن، لم يعد هناك وقت طويل. فإذا أردت أن نعمل، فيجب أن نبدأ الآن، فوراً .

حينئذ صمم الرجل

- بعد شارعين من هذا الشارع، تنتهي عند المزرعة الأخيرة على اليمين. يجب أن تتجنبوا الكلب، الذي لا بد وأنه مطلق السراح الآن، وهو كلب شرير. وقاطعه جواو غراندي

- هل لديك هنا قطعة لحم؟

لماذا؟

- لأجل الكلب

- سوف أرى

كان ينظر إلى الأولاد، كان يتساءل ما إذا كان يستطيع أن يعتمد عليهم.

- سوف تدخلون من العمق، وقرب المطبخ، في الجهة الواقعة خارج المنزل، يوجد غرفة فوق مرآب. إنها غرفة الخادم، الذي يجب أن يكون الآن في المنزل، منتظراً عودة سيده. وسوف تدخلون إلى غرفة الخادم، وعليكم أن تبحثوا عن رزمة كهذه، كهذه تماماً

واتجه نحو جيب معطفه، وأخرج منه رزمة صغيرة مربوطة بشريط وردي.

- إنها مشابهة تماماً لهذه. ولا أدري إن كانت هذه الرزمة ما زالت في المنزل. ويمكن أن تكون في جيب الخادم. فإذا كان الأمر كذلك، لن يعود بالإمكان أن نفعل شيئاً

وبدا أن يأساً مباغتاً قد ألم به

لو أمكنني أن أذهب بعد ظهر هذا اليوم... إذن، بالتأكيد، كنت سآخذ الرزمة في الغرفة. أما الآن فمن يدري؟

وغطى وجهه بيديه

وقال بيدرو: حتى ولو كانت الرزمة مع الخادم، فنحن نستطيع أخذها

- كلا. ومن المهم جداً أن لا يعرف أحد أن الرزمة قد سرقت. إن ما سوف تفعلونه، هو إبدال رزمة بأخرى، إذا كانت الرزمة المطلوبة في الغرفة.

- وإذا كانت مع الخادم؟

- حينئذ

وعاد وجه الرجل مجدداً للاكتئاب. وسمع جواو غراندي ناماً يشبه البكاء، ولكن ربما كان هذا وهماً من جواو غراندي، الذي كان أحياناً يسمع ويرى أشياء لا يسمع بها ولا يراها أحد. كان الرجل كادماً جداً

- إذن، يجب تغيير الرزمة بنفس الطريقة. ويمكنك أن تطمئن. إنك لا تعرف «فرسان الرمال»

بالرغم من يأسه، ابتسم الرجل من عجرفة بيدرو بالا

إذن، باستطاعتكم الذهاب. وبعد ذلك، لكن هذا يجب أن يكون قبل الساعة الثانية، عودوا إلى هنا. ولكن فقط حين تخلو الطريق تماماً. وسأنتظركم. وسوف نسوي حينئذ حساباتنا. لكن هناك شيء من واجبي أن أسهمكم إياه بإخلاص ... د اكتشف

أمركم واعتقلتم، فلا تعرضوني للخطر ولن أفعل شيئاً من أجلكم، لأن اسمي لا يمكن أن يظهر في كل هذه المسألة. وحاولوا حينئذ إخفاء هذه الرزمة، ولا تتصلوا بي بأية حجة كانت. المسألة أن نكسب أو نخسر.

رد بيدرو بالا: في هذه الحالة يجب تحديد الأجر مسبقاً. فكم تدفع؟

- إنني أعطي مئة ألف «رييس»، ثلاثون لكل واحد منكم، وعشرة زيادة لك،

وأشار إلى بيدرو.

تحرك «القط» على كرسيه. فأشار له بيدرو بأن يصمت. وقال للرجل: سوف تدفع خمسين ألفاً لكل واحد منا. وكما يبدو لي، فإنك تظل رابحاً في هذه الصفقة. وهذا يشكل مئة وخمسين ألف «رييس». وإلا، فلا رزمة هناك.

لم يتردد الرجل البتة. ونظر إلى ساعة يده، حيث يركض العقربان.

- اتفقنا.

حينئذ دفعه «القط».

- ليس ذلك لأننا لا نثق فيك. لكن المسألة يمكن أن تفشل، وقد قلت أنت نفسك إنك لن تهتم بما يمكن أن يحدث لنا.

- وماذا إذن؟

- من العدل والحالة هذه أن تعطينا سلفة كبيرة الآن.

وأيد جواو غرندي «القط» بإيمائة من رأسه. وردد بيدرو بالا آخر كلمات الآخر.

- هذا عدل، نعم. إذ كنا لا نستطيع الاتصال بك بعد ذلك.

وقال الرجل بدوره: نعم هذا عدل.

وأخرج من جيبه محفظة، وسحب منها ورقة مالية بمئة ألف «رييس»، وناولها لبيدرو.

- والآن اذهبوا بسرعة. لقد تأخر الوقت.

وخرجوا. وقال بيدرو بالا:

- لا تهتم. بعد ساعة سنعود ومعنا الرزمة.

وأمام المنزل (كان الشارع خالياً تماماً: وفي إحدى النوافذ كان هناك ضوء، وشاهدوا شبح امرأة يذهب ويجيء) وضرب الزعيم جبينه.

- لقد نسيت قطعة اللحم لأجل الكلب.

نظر بيدرو بالا إلى النافذة المضاءة.

- الأمر بسيط! كل هذا تفوح منه رائحة الخيانة الزوجية. من المؤسف أن شخصاً هناك كان «يرتب» الصغيرة هنا. والآن توجد مع الخادم رزمة الرسائل التي كان يتبادلانها، وهو يريد استعادتها. وهذه الرزمة يفوح منها العطر. وهذا ما يعني أن يحس به الأخير أيضاً.

وأشار إلى الاثنين بانتظاره في الجانب الآخر من الشارع، واقترب من بوابة المنزل. وما أن استند إليها، حتى اقترب منه كلب كبير وهو ينبح. وربط بيدرو بالا حبلاً رفيعاً بمزلاج البوابة، في حين كان الكلب يروح ويجيء، نابحاً بصوت خفيض. ثم نادى بيدرو رفيقيه.

- أنت (وأشار إلى «القط») ابق هنا، في الشارع لإعطاء الإنذار إذا داهمنا أحد ما. أنت، غراندي، فادخل معي.

ووثبا إلى ارتفاع الحاجز الصغير للجدار. وشد بيدرو بالا على المزلاج بالحبل الرفيع. فانفتحت البوابة. وكان «القط» قد ذهب إلى زاوية الشارع. وحين رأى الكلب الباب مفتوحاً، اندفع نحو الشارع، وتأخر هناك وهو يتفحص علبة قاذورات. وقفز بيدرو بالا وجواو غراندي إلى أسفل الجدار، وأقفلا البوابة لكي لا يستطيع الكلب العودة إلى المنزل، وتقدما بين الأشجار. وفي نافذة المنزل المضاءة، استمر شبح المرأة يروح ويجيء. وقال جواو غراندي بصوت خفيض جداً:

- إنني أتألم من أجلها.

من الذي طلب منها أن تنام مع الآخرين؟

ووقف الزنجي قرب المنزل لينقل الإنذار إلى «القط»، في حالة مداهمة أحد لهم، وكان يستخدم في هذه المناسبات أنواعاً خاصة من الصفير. ودار بيدرو بالا حول المنزل، ووصل إلى المطبخ. كان بابه مفتوحاً، كما كان مفتوحاً أيضاً باب الغرفة القائمة فوق المرآب. بيد أن بيدرو فضل أن يرقى السلم المؤدي إلى الغرفة، الذي نظره عبر باب المطبخ. ورأى بيدرو فيه رجلاً فقال: «لا بد أنه الخادم المذكور». هكذا فكر بيدرو. وبسرعة، فابتعد بيدرو نحو سلم المرآب. وصعد على الدرجات أربعاً فأربعاً. ودخل إلى غرفة الرجل. لم يكن هناك نور. وأقفل بيدرو الباب، وأشعل عود ثقاب. لم يكن هناك سوى سرير، وحقيبة. وأطفأ عود الثقاب. لكن بيدرو كان قد وصل إلى السرير، الذي بحث فيه بكامله. وإثر ذلك، نظر تحت الفراش. وهنا أيضاً لم يجد شيئاً. فعبر حينئذ من السرير واقترب من الحقيبة دون أن يحدث ضجة، ورفع غطاءها، وأشعل عود ثقاب أمسكه بأسنانه. وقام بالبحث في الثياب باحتراس. ولم يجد

شيئاً وضغط عود الثقاب، ثم تذكر أن الرجل ربما كان لا يدخن، فوضع علبة الثقاب في جيبه، واتجه نحو المشجب المثبت في الجدار. ولم يجد شيئاً في الملابس المعلقة على المشجب. وأشعل بيدرو بالا عود ثقاب أخيراً، وقام بتفتيش كل الغرفة.

ـ من المؤكد أن الرزمة هي مع الرجل. والآن سوف نتجارح

فتح باب الغرفة ونزل على درجات السلم، ووصل إلى باب المطبخ، كان الرجل ما زال جالساً، وحينئذ، لاحظ بيدرو بالا أن الرجل كان جالساً على الرزمة بالذات. كان طرف منها يبرز تحت ساق الرجل. وحسب بيدرو أن كل شيء قد ضاع. فكيف يستطيع سحب الرزمة من تحت هذه الساق؟ وابتعد عن باب المطبخ واتجه إلى الموضع الذي يقف فيه جواو غراندي. وفكر أن يهاجم الرجل بالاشتراك مع جواو غراندي. ولكن حينئذ ستكون هناك صيحات، وسيطلع الجميع على السرقة والذي استخدم لهذا العمل لم يكن يريد أي شيء مما ربما يحصل هنا. وفجأة خطرت لبيدرو فكرة. واقترب من الموقع الذي ترك فيه غراندي، وهو يصفر بصوت منخفض جداً. وسرعان ما ظهر جواو غراندي. وقال له بيدرو بالا بصوت منخفض جداً هو أيضاً: اسمع يا غراندي. إن الخادم جالس على طرف الرزمة. عليك أن تذهب إلى الباب المؤدي إلى الشارع، وتضغط على الجرس ثم تفر على الفور. ذلك لكي يقف الخادم، وأسرق أنا الرزمة. ولكن أسرع إلى الاختباء بسرعة، بحيث لا يراك الرجل، ولكي يظن أنه رأى حلماً لا حقيقة. اترك لي الوقت للوصول إلى المطبخ.

وعاد بسرعة إلى باب المطبخ، وبعد دقيقة، رن الجرس. فنهض الخادم بسرعة، وزرر سترته واتجه نحو مدخل المنزل عن طريق الرواق، حيث أضاء الكهرباء. وبعد بيدرو بالا إلى المطبخ. وقام بتبديل الرزمة، واتجه نحو الزريعة. وقفز عن الجدار، وصفر للـ «القط» ولجواو غراندي. وأسرع «القط» في الحضور. لكن جواو غراندي لم يظهر. وذهب من جهة إلى أخرى، لكن الزنجي لم يظهر أيضاً. بدأ بيدرو يفقد الصبر، خائفاً من أن يكون الخادم قد باغت جواو غراندي. ومن أن يكون الآن يتقاتل معه. لكنه أي بيدرو بالا، حين مر من هذا الجانب، لم يلاحظ أية ضجة.

وقال: إذا تأخر أيضاً فسوف ندخل.

وصفر مجدداً، ولم يحرزا أي جواب. وحزم بيدرو بالا أمره:

ـ سنعد إلى الداخل.

ولكن سرعان ما سمعتها صفرة جواو غراندي الذي لم يتأخر عن اللحاق بهما. وسأله بيدرو:

ـ أين حشرت؟

ـ كل شيء فقط، قد أمسكت الكلب من مقوده وأخرجته من الجانب الآخر للبوابة. وسحبت حبل جرس المزلاج الرفيع، واختفيت في الجانب الآخر من الشارع. في هذا الموضع، أصبح جواو غراندي الموقف.

ـ حين وضعت إصبعي على الجرس، أصيبت المرأة التي فوق بما يشبه الجنون، تبكي وتنتحب هي السافدة، وقد خيل إلي أنها ستلقي بنفسها منها. كنت نعم أن هذ... كانت تبكي وتنتحب حينئذ أحسست بالألم. وتعلقت بالأسوب لأقول لها أن لا تنتحب، وأنه لم يعد هناك سبب لذلك البكاء، نظراً لأننا سرقنا الرسائل. ونظراً لأنني اضطررت لأوضح لها كل شيء، فقد استغرق ذلك مني بعض الوقت.

وسأل «القط» مفعماً بالغضب:

ـ لقد أحست بالسرور، أليس كذلك؟

ـ بلى أحست بالسرور. وقد مسحت بيدها على رأسي، ثم شكرتني. وسألت هي منه أن يحميني.

ـ كف عن الحماقة، أيها الزنجي. سألت فقط إن كانت مسرورة. ولكن فقط من أجل السرير. وإذا كنت قد رأيت ذلك الداعر.

لم يجب الزنجي. ودخلت سيارة في الشارع. وربت بيدرو بالا على كتف الزنجي، وكان جواو غراندي يعرف أن الزعيم يوافق على ما فعل، أي الزنجي. حينئذ صار وجهه بالفرح والاستبشار. وهمس:

كنت أحب فقط أن أرى رأس الخادم حين سيفتح رب العمل الرزمة ولا يجد فيها ما كانا ينتظران.

كانوا قد دخلوا شارعاً آخر، وانطلقوا ثلاثتهم لا يلوون على شيء، مطلقين عاصفة ضحك. هو ضحك «فرسان الرمال» الذي كان بمثابة نشيد شعب باهيا.

* * *

أضواء مضمار الخيول الخشبية

لم يكن «المضمار الياباني الكبير» سوى لعبة خيل برازيلية صغيرة تصل، بعد جولة تجرية عبر مدن الداخل النائية، عبر ... شهر الشتاء هذه، حين تكون الأمطار تهطل بلا انقطاع، وعيد الميلاد ما زال بعيداً أيضاً. ولشدة ما نصل لونا الجياد الخشبية ـ وكانا في الماضي أزرق وأحمر، والآن أصبح الأزرق أبيض قذراً، وصار الأحمر لوناً زهرياً تقريباً ـ ولكثرة القطع التي كانت تنقص الجياد الخشبية، وبعض المقاعد بحيث قرر السيد فراسا، هوزيهو فراسا، أن يعرض ألعاب الجياد الخشبية في إيتاناجيب، وليس في إحدى الساحات المهمة في المدينة، وفي إيتاناجيب لم تكن العائلات غنية جداً، وهناك كثير من الشوارع العمالية فقط، وباستطاعة الأولاد الفقراء أن يقدروا نضارة الخيول الخشبية العتيقة الناصلة اللون. وكانت الشاشة مثقوبة هي أيضاً. هذا بالإضافة إلى صعوبة هائلة كانت ترغم المضمار على أن يتوقف عرضه على مرح المطر.

لقد كان هذا المضمار عهده القديم، وكان مفخرة أولاد ماسايو في أزمنة ماضية، ذهبت دون رجعة. كان مضمار الخيول الخشبية الملونة يقوم بين جمل رومي ونفق اصطناعي، دائماً في نفس الساحة. وفي أيام الآحاد والأعياد، كان أولاد الأغنياء اللابسين ثياب البحارة، أو أزياء صغار اللوردات الانكليز، والبنات الصغيرات بالملابس الهولندية أو بالفساتين الحريرية الناعمة يأتون جميعاً للجلوس على جيادهم المفضلة. وكان أصغرهم سناً يحتلون المقاعد مع مرضعاتهم. وكان أهل الأولاد يذهبون إلى الجمال الروسية الاصطناعية وآخرون كانوا يقصدون النفق حيث يستطيعون حشر النساء، ويجسون سيقانهن ومؤخراتهن في كثير من الأحيان. كان بالنسبة لهوزيهو فراسا في ذلك الحين يشكل نعيم مدينة. وأفضل من ذلك كله، هو أنه كان يدر النقود دائماً بصورة لا تكل بأضوائه المتعددة الألوان. كان هوزيهو يجد الحياة جميلة والنساء جميلات، والرجال يلاطفونه. لكنه كان يرى أيضاً أن المشروب جيد هو أيضاً وأنه يجعل الرجال أكثر لطفاً، والنساء أكثر جمالاً. وهكذا شرب في بدء النفق، ثم الجمل الروسي وإثر ذلك، ونظراً لأنه لم يكن يريد الانفصال

عن مضمار الخيول الخشبية، الذي كان متعلقاً به بشكل خاص، وإلى درجة كبيرة، فقد قام بتفكيكه في أحد الأيام بمساعدة بعض الأصدقاء. وبدأ بارتياد مدينتي الاغواس وسيرجيب. وخلال هذا الوقت، كان الدائنون يعرفونه بجميع أسماء الطيور، التي يعرفونها. لقد كان له ماضٍ جميل، هوزيهو فراسا، مع مضمار خيوله الخشبية! وبعد أن ارتاد جميع المدن الصغيرة في الولايتين وبعد أن سكر في جميع خاراتها، دخل إلى ولاية باهيا، ووصل به الحد إلى إقامته عرضاً لعصابة لامبياو.

كان في قرية فقيرة في داخل البرازيل، وكان يفتقر إلى النقود، ليس فقط لأجل نقل مضماره، بل كان لا يجد ما يدفع به أجرة الفندق البائس الذي ينزل فيه، والذي كان الوحيد في تلك البلدة، ولم يكن لديه ثمن كأس واحد من الخمرة، ولا البيرة التي لم تكن دائماً مجمدة، لكنه كان يحبها رغم ذلك. إن مضمار الخيول الخشبية، المقام على كلا ساحة «ماتريس»، كان متوقفاً منذ أسبوع. وكان هوزيهو فراسا ينتظر ليلة السبت وبعد ظهر الأحد ليرى إذا كان سيكسب بعض المال للانتقال إلى مكان أفضل. لكن يوم الجمعة دخل لامبياو إلى القرية مع ٢٢ رجلاً، وحينئذ تحمس كثيراً عمل المضمار. هؤلاء الكانغاسيروس(١٠)، الكبار، كانوا مثل الأولاد ـ وهم أي الكانغاسيروس في ذمتهم عشرون أو ثلاثون قتيلاً ـ. وجدوا مضمار الخيول الخشبية يحقق متعة لذيذة، وكانوا يرون أن النظر إلى أضوائه الدوارة، وسماع الموسيقى العتيقة للبيانو الآلي التابع للمضمار، وركوب هذه الخيول الخشبية البتراء، تحقق لهم أعظم متعة وأكبر سرور. إن مضمار هوزيهو فراسا قد أنقذ البلدة من النهب والفتيات من الاغتصاب، والرجال من الموت. إن الجنديين التابعين لشرطة باهيا، واللذين كانا يصفقان حد ثيها أمام مركز الشرطة، قد أعدمهما الكانغاسيروس، وذلك أيضاً قبل أن يرى الكانغاسيروس المضمار المقام على ساحة «الماتريس». وربما، بدون شك، كان يمكن أن يعفو لامبيو حتى عن شرطة باهيا في ليلة السعادة الكبرى هذه، بالنسبة لعصابة الكانغاسيروس. وأصبح هؤلاء حينئذ مثل الأولاد، وقد قرأ هذه السعادة التي لم يسبق لهم أن ذاقوها حين كانوا أولاد فلاحين فقراء. امتطاء جواد خشبي، والدوران معه حيث تعزف موسيقى بيانو آلي، وحيث الأضواء متعددة الألوان زرقاء وخضراء وصفراء وبنفسجية وحمراء مثل لون الدم المتفجر من أجساد من يتعرضون للاغتيال.

هذه القصة هي التي رواها هوزيهو لـ «الكوع الناشف»، (والتي جرحته بشدة).

(١٠) الكانغاسيروس: فلاحون فقراء يتحولون إلى قطاع طرق.

و«ذي الرجل الرخوة» في فترة بعد الظهر تلك حين التقاهما في حانة «باب البحر» (بورت دي مار) ودعاهما لمساعدته في تحريك مضمار الخيول الخشبية، خلال الأيام التي سيقام فيها هذا المضمار في باهيا، بلدة ايتاباجيب، ولم يكن باستطاعته أن يحدد لهما أجراً، ولكن ربما يستطيع كل منهما أن يكسب زهاء خمسة آلاف ريس كل ليلة. وحين عرض «ذو الكوع الناشف» قدرته على تقليد مختلف أنواع الحيوانات، تحمس نهوزنهو فرانسا به غاية الحماسة، وطلب من النادل زجاجة بيرة جديدة وأعلن أن «ذا الكوع الناشف» سيظل عند باب المضمار يدعو الجمهور إلى الدخول، في حين أن «ذا الرجل الرخوة» سيساعده على الآلات وسيتكلف أمر البيانو الآلي. وهو نفسه سوف يبيع بطاقات الدخول عند توقف المضمار. وحين يسير المضمار، يتكفل «ذو الكوع الناشف» بالمسألة.

وقال نهوزنهو وهو يغمز بعينيه. وبين الحين والحين، يخرج لشرب كأس، في حين يقوم الآخر بخدمة الاثنين.

لم يسبق «لذي الكوع الناشف» و«لذي الرجل الرخوة» أبداً أن تقبلا فكرة بمثل هذه الحماسة. فقد سبق لهما أن شاهدا مراراً مضماراً للخيول الخشبية، لكنهما كانا يريانه دائماً عن بعد، محاطاً بالأسوار، وجياده السريعة يمتطيها أولاد الأغنياء، السريعي البكاء، بل إن «صاحب الكوع الناشف» قد نجح ـ في أحد الأيام حين تسلل إلى بارك ألعاب أقيم في منتزه عام ـ بشراء بطاقة دخول، لكن الحارس طرده من ذلك المكان لأنه كان رث الثياب، وإثر ذلك لم يقبل قاطع التذاكر أن يعيد له ثمن البطاقة، ثم دفع «ذا الرجل الرخوة» لأن يستولي على جارور الصندوق الذي كان مفتوحاً ويحتوي على جميع نقود الفرقة. وكان عليه أن يختفي من المنتزه العام بصورة سريعة جداً في حين كانت تسمع في جميع أرجائه صيحات «إلى اللص، إلى اللص»، وحدث اضطراب وهياج هائلان بل رهيبان، في حين كان «ذو الرجل الرخوة» يهبط بهدوء تام على طريق «غاميوا دي سيما»، حاملاً في جيوبه على الأقل خمسة أضعاف ما دفعه ثمن بطاقة الدخول. لكن «ذا الرجل الرخوة» كان يفضل، بطبيعة الحال، أن يدور ممتطياً هذا الجواد الهائل، الذي له رأس تنين، وهو أروع جواد تضمه مجموعة المضمار البديعة. وقد أحس منذ ذلك الحين بالغصة إزاء رجال الشرطة، وبحب أكبر للمضمارات البعيدة. والآن، ها قد جاء رجل يدفع ثمن البيرة، ويمنحه فرصة حين يدعوه ليعيش بضعة أيام مع مضمار حقيقي للخيول الخشبية البديعة الألوان، ولأن يتحرك معه، ويمتطي جياده، ويرى عن قرب دوران أصواته المتعددة الألوان. وبالنسبة «لذي الرجل الرخوة» لم

يكن نهوزنهو ذلك السكير الذي يجالسه حول مائدة حانة «بورتا دي مار» البائسة، في نظره، كان نهوزنهو يمثل كائناً خارقاً شيئاً مثل الله الطيب الذي يصلي له «سكر ـ شمير» شيئاً مثل كسانغو، شفيع جواو غراندي، و«حبيب الله الطيب»، ذلك لأنه لا الأب جوزيه بيدرو، ولا (ماي ـ دي سنتو ـ دو آنينها) كانا قادرين على اجتراح معجزة كهذه. وفي ليالي باهيا، في ساحة ايتاباجيب، سوف تدور أضواء مضمار الخيول الخشبية بجنون، ويقوم بإحيائها وتحريكها «ذو الرجل الرخوة». كان ذلك كأنما في حلم، حلم مختلف تماماً عن الأحلام التي كان هو «ذو الرجل الرخوة» قد اعتاد أن يراها طوال ليالي قلقة. ولأول مرة، بدت عيناه بدموع لم تكن ناتجة لا عن العذاب ولا عن الغضب. كانت عيناه الرطبتان تتأملان نهوزنهو فرانسا بسعادة. فمن أجله، كان «ذو الرجل الرخوة» مستعداً حتى لذبح رجل بالموسى التي يحملها بين السروال والكنزة العتيقة السوداء التي كان يلبسها بمثابة سترة.

ـ هذا شيء بديع ورائع، هكذا قال بيدرو بالا وهو ينظر إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة بعد إقامته.

وكان جواو غراندي يطرف بعينيه لكي يرى بصورة أفضل. وكانت قد علقت مصابيح زرقاء والخضراء والصفراء والحمراء.

إنه قديم وباهت الألوان مضمار نهوزنهو فرانسا، لكن له جماله. وربما كان هذا الجمال يكمن في أصواته أو في موسيقى بيانو الآلي العتيق، (فالسات قديمة لأزمنة هاربة). أو ربما في جياده الخشبية الملونة. وبينها كان يوجد مكان يجلس فيه الأطفال الصغار أجمل. كان له جماله، ذلك لأنه كان هذا هو رأي «فرسان الرمال» المجمعين على أنه جميل جداً ورائع. وما همّ أن يكون عتيقاً ومحطماً، وممحو الألوان، إذ كان يروق للأولاد؟

كانت مفاجأة لا تصدق تقريباً حين وصل في تلك الليلة إلى المستودع «ذو الرجل الرخوة»، معلناً أنه هو و«ذو الكوع الناشف»، سوف يعملان بضعة أيام في مضمار الخيول الخشبية الملونة. كثيرون لم يصدقوها. وظنوا أن هذه مزحة جديدة من «ذي الرجل الرخوة». حينئذ ذهبوا ليسألوا «ذا الكوع الناشف» الذي كان يبقى كعادته جالساً في زاويته، بلا كلام، يتفحص مسدساً سرقه من محل لبيع الأسلحة. وأيد «ذو الكوع الناشف» هذا النبأ بإيماءة من رأسه. وكان يقول بين الفينة والفينة:

ـ بعد ركب لامبياو أحد هذه الخيول. فعلاً إن لامبياو هو عرابي.

ودعاهم «ذو الرجل الرخوة» جميعاً لأن يذهبوا ويشاهدوا مضمار الخيول الخشبية

في الليلة القادمة، بعد أن تتم اقامته. ثم ذهب لملاقاة جوزيه فرانسيس. في تلك اللحظة، فإن جميع القلوب الصغيرة التي كانت تنبض في المستودع قد غبطت «ذا الرجل الرخوة» على سعادته الكبرى، وحتى «سكر الشعر» الذي كانت لديه صور قديسين على جدرانه. وحتى جو وغراندي الذي كان من المقرر أن يذهب هذه الليلة بالذات مع «حبيب الطيب» الى رقص الكاندونيلية دي بروكوبيو، في بلدة ماتوتو. وحتى «الاستاذ» بالذات، الذي كان يقرأ كتباً، ومن يدري ما اذا كان بيدرو بالا هو أيضاً، هو الذي لم يكن يحسد أحداً أبداً لأنه كان زعيمهم جميعاً. أجل، جميعهم حسدوا «ذا الرجل الرخوة»... كما حسدوا «ذا الكوع الناشف» الذي كان جالساً في زاويته، وشعره المتناثر الاشعث بدون تسريح، وعيناه مفتوحتان نصف فتحة، وفمه فاغر قليلاً في تكشيرة غضب، وهو يشهر مسدسه اما على واحد من الصبيان، واما على جرذ يمر قربه، أو على النجوم التي كانت كثيرة جداً في السماء.

وفي الليلة التالية، ذهبوا جميعاً مع «ذي الرجل الرخوة» و«ذي الكوع الناشف» (كان هذان الاخيران قد قضيا النهار في الخارج يساعدان جوزيه في اقامة مضمار الخيول الخشبية) لمشاهدة هذا المضمار بعد اقامته. كانوا واقفين امامه، وقد خلب ألبابهم جماله، وقد فغرت افواههم لفرط الاعجاب. وكان «ذو الرجل الرخوة» يبين بالتفصيل كل جمالات المضمار. وكان «ذو الكوع الناشف» يصحبهم واحداً واحداً لكي يتأملوا باعجاب الجواد الذي امتطاه عرابه، فيرغولينو فريرو لامبياو. وكان هناك زهاء مئة من الاولاد الذين وقفوا يتأملون مضمار جوزيه فرانسيس، الذي كان في تلك الساعة، يسكر سكرة هائلة في حانة «لانتيرنا دي مار» («فانوس البحر»).

قام «ذو الرجل الرخوة» باطلاعهم على الآلة (وهي محرك صغير كان كثيراً ما يتوقف عن العمل) باعتزاز المالك. ولم يعد «ذو الكوع الناشف» يترك الحصان الذي امتطاه لامبياو. وكان «ذو الرجل الرخوة» يعنى عناية كبيرة بمضمار الخيول الخشبية، ولم يكن يسمح لاحد بأن يمسها أو يحركها مهما كان السبب.

حينئذ سأل «الاستاذ»:

- هل أصبحت تعرف تشغيل الآلات؟

- غداً سوف اعرف ذلك. هكذا اجاب «ذو الرجل الرخوة»، ببعض الاستياء. وقال: غداً السيد جوزيه سوف يعلمني ذلك.

- اذن غداً، بعد أن تنهي عملك، تستطيع أن تدير مضمار الخيول الخشبية لأجل الاصدقاء وحدهم. انت ستفعل ما يلزم لتسيير المنظومة، ونحن نجلس للفرجة

بيدرو بالا فكر بحماسة. وكان الاخرون ينتظرون بقلق، جواب «ذي الرجل الرخوة». وهذا الأخير قبل. وحينئذ صفق العديدون، وأطلق آخرون صيحات. في هذه اللحظة، ترجل «ذو الكوع الناشف» عن الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو، ووقف («ذو الكوع الناشف») نحوهم:

- هل تريدون أن تروا شيئاً جميلاً؟

كان الجميع يريدون ذلك. صعد السيرتانيجو[11] إلى المضمار، وسيّر البيانولا، وأسمعهم انغام رقصة فالس من أيام زمان. كان وجه «ذي الكوع الناشف» القاتم يضيء بابتسامة. كان يشغل البيانو الآلي، ويراقب الاولاد المأخوذين بالفرح. كان هؤلاء يصغون بحرارة إلى الموسيقى التي كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية، في سحر ليل باهيا، وذلك فقط من أجل آذان «فرسان الرمال» المغامرين والشقية. كان الجميع صامتين. واقترب منهم عامل كان يمر في الطريق، حين رأى تجمع الاولاد على هذا النحو. هو أيضاً لبث ساكناً بلا حراك وهو يصغي إلى هذه الموسيقى القديمة. حينئذ غمر ضوء البدر الجميع، وازداد لمعان النجوم في السماء، وازداد هدوء السحر (ولعل سيدة البحر ايمانجا جاءت هي ايضاً لسماع الموسيقى). ولم تعد المدينة سوى مضمار كبير كان يدور عليه على خيول غير مرئية «فرسان الرمال». في هذه اللحظة الموسيقية، أحسوا هم بأنهم سادة المدينة. وأحب بعضهم بعضاً، وأحسوا بأنهم اخوة. لأن الجميع كانوا معاً محرومين من الحنان والرعاية، والآن اصبح لديهم حنان الموسيقى ورعايتها. ومؤكد تماماً أن «ذا الكوع الناشف» لم يكن الآن يفكر في لامبياو وبيدرو بالا لم يعد يفكر في اليوم الذي سيصبح فيه زعيم جميع المالاندروس[12] في المدينة، وكف «ذو الرجل الرخوة» عن التفكير في الارتماء بالبحر حيث جميع الاحلام جميلة. لأن الموسيقى كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية القديم، لهم وحدهم، وللعامل الذي وقف يصغي إلى الموسيقى. وكانت هذه الموسيقى رقصة فالس قديمة وحزينة، ولحناً منسياً لرجال المدينة.

* * *

(١١) السيرتانيجو: ولد من اهل سيرتاو.

(١٢) فتيان دفعهم الفقر إلى تكوين عصابات من قاطعي الطرق واللصوص، الحاملين مع ذلك قيثارات للرقص والغناء.

- ملاحظة من المترجم -

كان الأشخاص يتوافدون من جميع الشوارع. فها هي ليلة سبت. غداً، لن يذهب الرجال إلى عملهم. وهذه الليلة يستطيعون التأخر في الطرقات. كثيرون منهم فضلوا الحانات، وكانت حانة «باب البحر» تغص بالرواد. لكن الذين لديهم أولاد جاؤوا معهم إلى الساحة السيئة الإضاءة، وكأنها تعويض. كانت هنا أضواء مضمار الخيول الخشبية الدوارة. كان الأولاد ينظرون إلى الأضواء والخيول ويصفقون بأيديهم فرحاً. وعند الباب، كان «ذو الكوع الناشف» يطلق صرخات حيوانات ويدعو الجمهور إلى الدخول. وكان يحمل جعبة خرطوش كأنه يصطاد في براري سرتاو. لقد اعتقد نهورنهو أن هذا يستلفت انتباه الناس. وكان «ذو الكوع الناشف» يشبه حقاً الكانغاسيرو، بقبعته الجلدية، وجعبته الصيادية. وراح يحاكي صيحات الحيوانات حتى اجتمع حوله رجال ونساء وأولاد. وحينئذ جعل يعرض بطاقات الدخول. كان الآخرون يشترونها. كانت البهجة والمرح يغمران الساحة بأسرها. وأضواء مضمار الخيول الخشبية تبهج الجميع. وفي الوسط، كان «ذو الرجل الرخوة» مقرفصاً يساعد نهورنهو فرنسا في تشغيل المحرك. والمضمار يدور مثقلاً بالأولاد. والبيانو الآلي يطحن ألحانه القديمة، و«ذو الكوع الناشف» يبيع بطاقات الدخول.

وفي الساحة، كان أزواج العشاق يتنزهون. وربات منازل يشترين قطع الحلوى (الإسكيمو)، والشراب. وكان شاعر جالساً قرب البحر، ينشد قصيدة طويلة يتغنى فيها بأضواء المضمار وبهجة الأطفال. كان مضمار الخيول الخشبية يضيء الساحة وجميع القلوب. وفي كل جولة، كان الناس يصلون من الشوارع والزواريب. و«ذو الكوع الناشف» يحاكي أصوات الحيوانات وهو بملابس الكانغاسيرو. وحين كان المضمار يتوقف عن الدوران، كان الأولاد يتناحرون مبرزين بطاقات الدخول، وكان من الصعب كبحهم. وحين كان أحدهم لا يجد مكاناً له، كانت ملامح وجهه تكتسي زعلاً محزناً، في حالة قريبة من اليأس. ويظل واقفاً ينتظر دوره بفارغ الصبر. وحين يتوقف مضمار الخيول الخشبية، كان ممتطو الجياد يرفضون النزول. كان يتوجب حينئذ أن يصرخ «ذو الرجل الرخوة» بهم:

- هيا، انزلوا! هيا، انزلوا! أو اشتروا بطاقة ثانية.

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلهم يغادرون الجياد الخشبية القديمة، التي لم تكن تتعب أبداً من السباق الأبدي. وكان غيرهم يركبون المطايا، ويستأنف السباق، وتدور الأضواء، وتنصهر جميع الألوان في لون واحد غريب، والبيانو الآلي يصب أنغامه القديمة.

وكان على المقاعد الخشبية البسيطة أيضاً أزواج من العشاق، وهم، ومضمار الخيول الخشبية الملونة يدور في بهجة ورشاقة شعبية، يتبادلون همساً كلمات الحب. بل كان هناك عشاق ومعشوقات يتبادلون قبلات شبه مختلسة حين يتوقف المحرك هنيهة، وتنطفئ الأنوار. حينئذ كان نهورنهو فرنسا و«ذو الرجل الرخوة» ينكبان على المحرك ويفحصان العطل حتى يستأنف الدوران، متلافين احتجاجات الأولاد. لقد أصبح «ذو الرجل الرخوة» يعرف جميع أسرار المحرك.

وفي لحظة ما، كان نهورنهو فرنسا يرسل «ذا الرجل الرخوة» ليحل محل «ذي الكوع الناشف» في بيع بطاقات الدخول، ويتيح لـ«ذي الرجل الرخوة» فرصة لامتطاء أحد الجياد الخشبية. وكان الغلام الصغير يختار الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو، وكان طوال وقت الدورة، يمضي فاغراً كأنه يمتطي جواداً حقيقياً. وكان يسدد إصبعه وكأنه سيطلق النار على الأولاد الذين أمامه، وكان يراهم في تخيله يسقطون في بركة من الدم، تحت طلقاته المكررة. وكان الجواد يعدو، وتتزايد سرعته باستمرار. لكن الغلام كان يقتلهم جميعاً لأنهم كانوا في نظره جنوداً أو مزارعين أغنياء. وإثر ذلك، كان يمتد على مقعده جميع النساء الحسناوات، وينهب القرى، والمدن، وقطارات السكك الحديدية، راكضاً على صهوة جواده، ومشهراً بندقيته.

وإثر ذلك، يأتي دور «ذي الرجل الرخوة». كان يذهب إلى جواده الخشبي الأزرق أو الأحمر، وهو صامت، كان انفعال غريب يستولي عليه. كان يمضي كما يذهب المؤمن إلى القداس، والعاشق إلى صدر المرأة المحبوبة، والبائس نحو الموت. كان يمضي شاحباً، أعرج، ويمتطي جواداً أزرق، يحمل ثلاثة نجوم على كتفه الخشبية. كانت شفتاه مزمومتين، وأذناه لا تسمعان موسيقى البيانو الآلي. كان يرى فقط الأنوار التي تدور معه، وكان يتحقق يقيناً في داخل نفسه أنه في مضمار من الخيول الخشبية يدور في دائرة، مثل جميع هؤلاء الأولاد الذين لهم أب وأم ومنزل، وأشخاص يقبلونهم، وكائنات تحبهم. كان يتصور أنه منهم، ويغمض عينيه لكي يحتفظ بصورة أفضل بهذا اليقين. وهو لم يعد يرى الجنود الذين أوسعوه ضرباً، والرجل لابس السترة الذي كان يضحك. لقد قتلهم «ذو الكوع الناشف» في ركوبه. و«ذو الرجل الرخوة» ينطلق على جواده منهمكاً ثابت الجنان. كان يحس وكأنه ينطلق طائراً على موج البحر، صاعداً نحو النجوم، في أروع رحلة في العالم وأكثرها إثارة للدهشة. رحلة لم يسبق لـ«لامبياو» أبداً أن عرف مثلها ولا تخيلها. كان قلبه ينبض بقوة، بقوة إلى حد أنه شد عينيه بيده.

في تلك الليلة، لم يأت «فرسان الرمل». وليس فقط لأن نشاط المضمار على الساحة انتهى في وقت متأخر (في الساعة الثانية فجراً كانت الجياد ما زالت تدور)، بل أيضاً لأن العديد من أفراد «الفرسان»، بمن فيهم بيدرو بالا، و«الشارب اللطيف»، وبارانداو، و«الأستاذ»، كانوا منشغلين بشؤون مختلفة. وقد تم اتفاقهم، بالنسبة لليوم التالي، على الالتقاء حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. وسأل بيدرو بالا «ذا الرجل الرخوة» إذا كان قد أصبح يعرف تشغيل المحرك، وقد أوضح بيدرو قائلاً:

- لا فائدة في أن تلحق الأذى بمعلمك.

- لقد أصبحت أعرف كل شيء عن ظهر قلب، وعلى أطراف أصابعي. إنه نموذج للعمل المنهك. وسأل «الأستاذ»، الذي كان يلعب الضامة مع جواو غراندي:

- ألا ترى أنه سيكون من المناسب، أن «نعطف رجعاً» إلى الساحة، بعد ظهر اليوم؟ من يدري، قد يكون هناك ما يستحق أن نذهب؟

قال بيدرو بالا: أما من جهتي سأذهب. لكني أعتقد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى هناك بعدد كبير. فالجماعة يمكن أن يحسوا بالقلق لدى رؤيتهم عدداً كبيراً منا، دفعة واحدة.

- يقول «القط» إنه لن يذهب في فترة بعد الظهر. إنه مشغول. يبدو أنه سيكون منهمكاً ليلاً في مضمار الخيول الخشبية.

فقال «ذو الرجل الرخوة» ساخراً:

- ألا تستطيع أن تقضي يوماً بدون أن تحرك فيه مع تلك المومس، يا قوطي؟ سيكون مصيرك تعساً يا صديقي.

لم يجب «القط». ثم جواو غراندي هو أيضاً لن يذهب في فترة بعد ظهر اليوم. إذ إنه قد قرر أن يلتقي بـ«حبيب الله الطيب» لكي يذهبا لتناول الطعام عند دون آنيها لأمي دي سانتو. وفي النهاية، تقرر أن يذهب فريق صغير للعمل في الساحة ويستطيع الباقون أن يذهبوا حيثما شاؤوا. وفي الليل فقط، سوف يجتمعون كلهم لامتطاء خيول المضمار الملونة. وقال «ذو الرجل الرخوة» محذراً:

- يجب إحضار بنزين، أيها القوم، للمحرك. وقام «الأستاذ» (كان قد كسب ثلاث جولات من جواو غراندي) بجمع نقود من رفاقه لشراء ليترين من البنزين.

- سأحضر البنزين.

ولكن في فترة بعد ظهر يوم الأحد هذا، الأب خوزيه بيدرو، الذي كان من الأشخاص النادرين جداً الذين يعلمون أين هو الملجأ الأكثر دواماً لـ«فرسان الرمال». وقد ربطت الأب خوزيه بيدرو معهم عرى الصداقة منذ زمن طويل. وهذه

الصداقة نشأت بواسطة «الشارب اللطيف»، أحد صبيان العصابة. وكان هذا الأخير، قد تسلل يوماً، بعد القداس، إلى موهف[13] (سكرستيا) إحدى الكنائس حيث كان الأب خوزيه بيدرو يقوم بالخدمة المقدسة. وكان «الشارب اللطيف» قد دخل إلى هناك بمجرد الفضول قبل أي شيء آخر. هذا الغلام لم يكن من الذين يهتمون كثيراً بشؤون الحياة ويسعى إلى الرزق. كان يحب ترك الوقت يمضي، دون أن يكلف نفسه زهقاً. كان، على الأخص، طفيلياً في الجماعة. وفي بعض الأيام، حين يشاء هواه، كان يسعى إلى أحد المنازل، ويأخذ منه شيئاً ثميناً، أو يشلح محفظة شخص ما. ولم يكن يقوم أبداً، تقريباً، بتسليم ما يسرق إلى من اعتادوا إخفاء الأشياء المسروقة، بل كان يحصره، ويسلمه إلى بيدرو بالا، كحصة إسهام منه في حياة الجماعة. وكان له أصدقاء كثيرون بين حمالي الميناء، وفي مختلف منازل الفقراء في مدينة القش، وفي مواضع عديدة من ولاية باهيا. وكان يأكل على مائدة هذا، ثم على مائدة ذاك، من الناس. وبصورة عامة، لم يكن يثير سأم أحد. وكان يكتفي بالنساء اللواتي يردن عن حاجة «القط». وكان يعرف، أفضل من أي شخص آخر، المدينة وطرقاتها، والمواضع الأكثر إثارة للفضول، وأماكن الاحتفالات والأعياد، حيث يذهب ليشرب ويرقص. وحين يمضي بعض الزمن لم يساهم فيه بشيء ثمين في التنظيم الاقتصادي للجماعة، كان يبذل جهداً ويتصرف بحيث يحصل على شيء يعود بالنقود، ويسلمه إلى بيدرو بالا. لكنه، في الحقيقة، لم يكن يحب أي نوع من العمل، أشريفاً كان أو غير شريف. وما كان يحبه هو أن يتمدد على رمل الشاطئ، ساعات وساعات، يرصد البحر، ولقاء معرفصاً غراب كامنة لما بعد الظهر على أبواب حوانيت العطارة، مصغياً إلى قصص البحارة التي يرويها عمال أو صيادون. كان يرتدي الأسمال الرثة، ذلك لأنه لم يكن يغير ملابسه إلا حين تسقط خرقاً ممزقة. كان يحب التسكع في طرقات المدينة، أزقتها وشوارعها، والدخول إلى بعض الحدائق لتدخين سيجارة، أو إلى إحدى الكنائس لتأمل بعجب جمال الذهب العتيق، متشرداً عبر الطرقات المبلطة بحجارة كبيرة سوداء.

في ذلك الصباح، حين رأى الناس خارجين من القداس، دخل إلى الكنيسة دون سرور، وشق طريقه نحو الموهف («السكرستيا»). وراح يتفحص كل شيء، المذابح، والقديسين، ووقف يسخر من صورة تمثل قديساً نحيلاً، الشديد السواد. لم يكن يوجد

(١٣) موهف (سكرستيا): مكتب أو موضع فيه رياش الكنيسة، وحيث يرتدي الكهنة ملابسهم الكهنوتية.
- ملاحظة من المترجم -

أخذ في موقعه، ورأى حلية ذهبية يمكن أن تدر نقوداً كثيرة. وألقى نظرة أخيرة حوله، فلم ير أحداً. مد يده لكن شخصاً لمس كتفه. كان الأب بيدرو قد دخل:

- لماذا تفعل هذا يا ولدي؟ هكذا سأله الخوري باسماً، في حين كان يسحب من يد «الشارب اللطيف» الذخيرة الذهبية.

- كنت أنظر اليها فقط، يا أبت. انها مزيفة... هكذا أجاب «الشارب اللطيف» ممحياً بعض الخوف. وأردف: نعم، انها مزيفة تماماً. لكن لا تظن انني كنت سأسرقها. بل كنت سأتركها هنا. هكذا، كما هي. إنني من عائلة محترمة.

ألقى الأب جوزيه بيدرو نظرة سريعة على أسمال «الشارب اللطيف»، وأغرق بالضحك. ونظر «الشارب اللطيف» هو أيضاً إلى ثيابه الرثة.

- هذا لأن والدي قد توفي. في الحقيقة لكني كنت أدرس في كنيسة. أنا أقول الصحيح. ولماذا أسرق هذه الحلية؟

وأشار إلى الذخيرة الذهبية وأضاف:

- ولي كنيسة أيضاً. أنا لست وثنياً.

ابتسم الأب جوزيه بيدرو مجدداً. كان يعرف تماماً أن «الشارب اللطيف» يكذب. منذ زمن طويل كان الخوري ينتظر فرصة تمكنه من الاتصال بالأولاد المشردين في المدينة. كان يعتقد أن الرسالة المناطة به هي هذه: مساعدة الأولاد المشردين. وكان قبلاً قد زار مراراً دور الاصلاحيات. لكن المسؤولين عن تلك الدور كانوا يضعون أمامه عقبات وحواجز من كل نوع، لأنه لم يكن يوافق على رأي المدير القائل بأن أفضل وسيلة لاصلاح ولد ارتكب ذنباً هي ضربه بلا هوادة. ومنذ زمن طويل كان الأب جوزيه بيدرو يسمع الاحاديث عن «فرسان الرمال»، ويحلم بالاتصال بهم. ولكن يتمكن من هدي جميع هذه القلوب إلى الله. كانت لديه رغبة شديدة جداً بالعمل مع هؤلاء الأولاد، ومساعدتهم على أن يكونوا أخياراً. لذلك، عامل «الشارب اللطيف» بأفضل ما استطاع. ومن يدري. فربما بواسطة هذا الغلام سيصل إلى «فرسان الرمال»؟ وهكذا كان.

في الاكليروس، لم يكونوا يعتبرون الأب جوزيه بيدرو كبير الذكاء. بل لقد كان أحد أكثر مجموعة كهنة باهيا تواضعاً. وفي الواقع، فقبل أن يدخل إلى المدرسة الاكليركية، كان الأب جوزيه عاملاً، لمدة خمس سنوات، في مصنع الأقمشة. وقد قرر مدير المصنع، في أحد الأيام، عند زيارة المطران هذا المصنع، أن يقدم دليلاً على

سخاء نفسه فأعلن أنه، نظراً لأن سيدنا المونسينيور يشكو من قلة الدعوات[١٤] الربانية، فإنه أي صاحب المصنع، مستعد لأن يدفع نفقات تعليم طالب في مدرسة اكليركية، أو نفقات طالب آخر يريد أن يدرس ليصبح كاهناً. عندئذ، اقترب جوزيه بيدرو، وكان يعمل على النول، وقال إنه يريد أن يصبح كاهناً. كانت هذه مفاجأة لرب العمل وللمطران على حد سواء. إن جوزيه بيدرو لم يعد شاباً، ولم تكن لديه أية ثقافة. لكن رب العمل، لم يكن يريد، امام المطران، أن يسحب كلامه.

وذهب جوزيه بيدرو إلى المدرسة الاكليركية وجعل تلامذتها يسخرون منه، ولم يفلح أبداً في أن يكون تلميذاً مجتهداً. كان سلوكه جيداً، بالتأكيد، ومن أتقى التلامذة، ومن الذين يرتادون الكنيسة اكثر من سواهم. ولم يكن يوافق على كثير من الامور التي تحصل في الدير، ولأجل هذا كان التلامذة يضطهدونه. ولم يكن باستطاعته فهم اسرار الفلسفة، واللاهوت، واللغة اللاتينية. لكنه كان ورعاً تقياً، وكان يرغب في تعليم مبادىء الدين للاولاد وللهنود الحمر. وقد عانى كثيراً من الآلام والعذاب، وعلى الأخص حين توقف صاحب المصنع، بعد سنتين، عن دفع نفقات دراسة جوزيه بيدرو، فاضطر هذا الاخير ليعمل خادماً في الدير لكي يستطيع الاستمرار. لكنه استطاع أن يسام كاهناً فجرى الحاقه باحدى كنائس العاصمة في انتظار الخورية (قرية يخدمها ككاهن). ومع كل ذلك، فقد كانت رغبته الكبرى هي أن يعلم الأولاد المشردين في المدينة مبادىء الدين، هؤلاء الصبيان الذين كانوا بلا أب، ولا أم، ولا مرشد ويعيشون على السرقة، معرضين لجميع الآثام والآفات. كان الأب جوزيه بيدرو يريد أن يهدي جميع هذه القلوب إلى الله. وهكذا راح يرتاد دور الاصلاحيات، حيث استقبله المدير، بادىء بدء، بلطف كبير. ولكن حين اعلن الكاهن أنه ضد العقوبات الجسدية، وضد عملية ترك الأولاد فريسة للجوع طوال أيام، حينئذ تغير الوضع، وسارت الأمور بطريقة أخرى. وفي هذا الصدد، اضطر الكاهن في أحد الأيام لكتابة رسالة إلى هيئة تحرير احدى الصحف. ومنذ ذلك الحين، مُنِع (بضم الميم وكسر النون) الأب جوزيه من دخول دور الاصلاحية، بل وقد جرى توجيه شكوى ضده إلى مقر الأبرشية. وبسبب كل هذا، لم يتمكن من أن يكون له رعايا مباشرون. بيد أنه كان يحس برغبة شديدة وكبيرة في التعرف إلى «فرسان الرمال». إن مشكلة الأولاد

(١٤) الدعوة الربانية vocation أو الارشاد الرباني. وهو نداء باطني (شعور الانسان بأنه مدعو للقيام بعمل اجتماعي أو ديني خاص). - ملاحظة من المترجم -

للمتضررين والخاطئين، التي لم تكن تهتم أحد بقربها في المدينة. كانت أكثر هموم الأب جوريه بيدرو. كان يريد مقاربة هؤلاء الأولاد، ليس فقط هديهم إلى الله ولكن أيضاً لكي يرى ما إذا كان ثمة وسيلة ما، لتحسين حياتهم. كان معود الأب جوريه بيدرو صغيراً بل لم يكن لديه أي تأثير ولم يكن يعرف أيضاً ماذا يفعل لكسب ثقة هؤلاء اللصوص الصغار. لكنه كان يعلم أن حياتهم فاقدة لأي رفاه، ولأي حنان. حياة جماعة يتشردون. وقد كان الأب جوريه ليس لديه سرير ولا طعام ولا ملابس يقدمها لهم، فقد كان لديه على الأقل كلمات عطف، وبالتأكيد كثير من الحب في قلبه يعطيهم إياه.

وفي البدء، أخطأ الأب بيدرو في موقفه وفي عظاتهم، مقدراً التخلي عن الحرية التي يتمتعون بها. وهم متروكون في الشارع، مكانهم حياة أكثر راحة ورفاهاً. كان الأب جوريه بيدرو يعلم جيداً أنه لا يستطيع توجيه هؤلاء الأولاد نحو دار الإصلاحية. فقد كان يعرف جيداً جداً ما هي دار الإصلاحية، لقوانين المكتوبة والأخرى التي يجري تطبيقها. وكان يعلم جيداً أنه لم يكن هنالك أي مكان لولد داخل الإصلاحية لأن يصبح طيباً وشغيلاً. لكن بالمقابل كان يعتمد على بعض صداقته ومن سيدة ثقيات، من مرمنات، وكريمات النفوس، كان في استطاعتهن كفالة عدة أولاد من «فرسان الرمال»، في تربيتهم وطعامهم. لكن هذا الحل كان يعني أن يتخلى هؤلاء الصبيان عن كل ما يشكل عظمة حياتهم: مغامرة الحرية في شوارع أكثر مدن العالم أسراراً وأجملها، الشوارع باهيا جميع القديسين. وبعد أن أقام الأب جوريه بيدرو بواسطة «الشارب اللطيف» علاقات مع «فرسان الرمال»، أحس بأنه لو عرض عليهم ذلك الاقتراح، فسوف يفقد كل الثقة التي وضعوها فيه، وأنهم سيغيرون مقرهم وأنه لن يراهم أبداً بعد ذلك. حتى وفي الحقيقة، أنه لم يكن لديه هو أيضاً ثقة مطلقة في هذه العوانس من السيدات المتدينات اللواتي كن يمضين حياتهن مندسات في الكنيسة واللواتي يغمسن مرات من القداديس لكي يغصن في الحديث عن حياة الآخرين. وهو يذكر أنه في البدء حرج بشاعرهن حين اقتربت منه، اثر انتهاء أول قداس أقامه في هذه الكنيسة، مجموعة من التقيات المرمنات، كان واضحاً أنهن يردن مساعدته في خلع ثياب خدمة القداس. وارتفعت حوله صيحات تعجب حنون:

- يا لمحترم الصغير... إنه كملاك جبريل.

واقتربت منه عجوز، نحيفة جداً، وشبكت يديها كما هي العادة وقالت:

- يا صغيري يسوع المسيح المعبود.

كان يبدو أنهن يصلين له، بل يعبدنه. فثار الأب جوريه بيدرو. وفي الحقيقة،

كان يعلم أن أغلب الكهنة لم يكونوا يرفضون هذه المعاملة لهم، بل كانوا يحصلون على هدايا كثيرة من الفراريج والديوك الهندية، والمناديل المطرزة، بل وأحياناً ساعات ذهبية تمررنها عبر الأخوات أولاد عائلة معهن. لكن الأب جوريه بيدرو كانت لديه فكرة أخرى عن مهمته، كان يرى أن الآخرين خاطئون. وسوف عليه غضب شديد وفي حين:

- يا سيداتي، أليس لديكن شيء آخر تفعلنه؟ أليس لديكن منزل تعتنين به؟ إني سأحب يسوعكم المسيح المعبود، ولا ملاك جبريل... عدن للعمل في منازلكن، لإعداد الطعام، والحياكة.

كانت الضفادع حول الماء ينظرن إليه، مذهولات، وكأنه كان سيجيح داخل شخص رائي. لكنهن كلامه قائلاً:

- لكن عملكن في منازلكن، سوف تجدن سيداً ولا ملاك بصورة أفضل من انشغالكن هنا برائحة البخور... ذهن... ذهن.

وفي حين كن يخرجن مرعوبات، كان يردد قائلاً مرة أكثر من مغضب:

- يا يسوعي المسيح المعبود... باسم الإله عشاً.

ذهبت السيدة التقيات في خط مستقيم إلى عند الأب كلوفيس، الذي كان بديناً، وضيعاً، وذا مزاج مرح. كان هو معترف هاته السيدات. وروين له وسط صيحات تعجب واندهاش، ما حدث لهن. ابتسم الأب كلوفيس للتقيات بمحبة حنون وهو قائلاً:

- هذا الأمر سوف ينتهي. الأب بيدرو حديث العهد بمعرفة قريبة فقط، فما بعد، سوف يرى أنه يجب أيضاً القديسات مثلكن. فأنتن بنات الرب الحقيقيات سوف تمر الصعوبة ... ولى «الأنانا» ولا تنسين أن هذا اليوم هو يوم تبريك.

استغرق الأب كلوفيس في الضحك بعد أن ذهبن. وهمس في دخيلته: هؤلاء الكهنة حديثو العهد، الطموحون، يكدرون حياة الناس.

وفيما بعد، أخذت السيدة التقيات يتخيلن مفتريات أكثر فأكثر من الأب جوريه بيدرو. وفي الحقيقة، فهو لم يصل معه أي صلة حميمة تماماً. إن هيئته المهيبة، وبساطته التي كانت تكرس للطقوس التي تكون فيها ضرورية، وبغضه للدسائس الكهنوتية الصغيرة، كانت تدفعهن إلى أن يحترمنه أكثر مما يحببنه. بيد أن أواصر صداقة تعززت بينه وبعض السوقة، وهن بصورة عامة أرامل، أو زوجات رجال أذكياء. وكان سبب آخر ساعد بينه وبين التقيات المرمنات، وهو أنه كان ناقصاً

للواعظ الممتاز. فهو لم ينجح أبداً في وصف الجحيم بقوة الاقناع التي كان يملكها الأب كلوديس. مثلاً كانت بلاغة الأب بيدرو فقيرة، وفاشلة في كثير من الأحيان. لكنه كان لديه الايمان. فقد كان مؤمناً. ومن جهة أخرى، كان من الصعب التأكيد بأن الأب كلوديس يؤمن بالجحيم على الاقل.

في البدء، فكر الأب جوزيه بيدرو بتسليم «فرسان الرمال» إلى النسوة التقيات. وكان يعتقد بذلك أنه ليس فقط سيبعد الأولاد عن حياة بائسة، بل أنه سوف ينقذ التقيات المزمنات من حياتهن غير المجدية، بصورة صارمة. كان في وسعه الحصول على أن يكرسن أنفسهن للأولاد بنفس التقى الحار اللواتي يكرسن به أنفسهن للكنائس، وللكهنة ذوي السمنة. وكان الأب جوزيه بيدرو يجهل (اكثر مما كان يعلم) بأنهن اذ كن يمضين حياتهن في أحاديث تافهة في الكنائس، أو في تطريز مناديل للأب كلوديس، فذلك لأن هاته العوانس المسنات لم يكن لهن ولد، أو زوج يكرسن له وقتهن وحنانهن. إنه الأب سيأتيهن بابن. ظلت هذه الفكرة تراود الأب جوزيه بيدرو زمناً طويلاً. بل حدث أنه اصطحب إليهن ولداً كان قد فر من دار الاصلاحية. وذلك قبل زمن طويل من تعرف الأب إلى «فرسان الرمال»، حين كان يسمع القليل عنهم. وأدت التجربة إلى نتائج سيئة. لقد فر الغلام من منزل العانس المسنة، آخذاً معه عدة قطع من الفضيات، مفضلاً على الملابس الجميلة والغذاء المضمون مع واجب تلاوة التسبيح بصوت عال، وحضور مختلف القداديس وصلوات التبريك اليومية ـ حرية الشارع، حتى وهو بنفس الاسمال البالية، وحتى دون أن يكون متأكداً من الحصول على غذاء. وفيما بعد، فهم الأب جوزيه بيدرو أن التجربة قد أخفقت بخطأ العانس المسنة أكثر منها بخطأ الولد. ذلك، طبعاً، كما كان يرى الأب جوزيه بيدرو، لأن من المستحيل تحويل ولد متشرد وسارق إلى تندلعت. لكن من الممكن جداً تحويله إلى رجل شهم. وكان يأمل بأنه حين سيتعرف إلى «فرسان الرمال» سيحقق اتفاقاً بين بعضهم والنسوة التقيات، بمحاولة القيام بتجربة جديدة، تكون هذه المرة موجهة جيداً. ولكن ما أن قدمه الغلام «الشرس اللطيف» إلى المجموعة، وحين كسب شيئاً فشيئاً ثقة القسم الاكبر منهم، رأى أن من غير المجدي كلياً أن يراوده هذا المشروع. لقد أدرك أن هذا المشروع عبثي، لأن حب الحرية كان الشعور الاكثر تجذراً في قلوب «فرسان الرمال»، وأنه يسمي استعمال وسائل اخرى.

في الاونة الأولى، كان الاولاد ينظرون اليه بحذر وريبة. ومراراً عديدة في الشارع، كانوا يسمعون أن الخوري يأتي بالنحس وسوء الحظ، وأن التعامل مع الكهنة

هو جيد فقط للنساء. لكن الأب جوزيه بيدرو كان عاقلاً، ويعرف كيف يعامل الأولاد. كان يعاملهم كرجال، وكأصدقاء. وهكذا كسب ثقتهم، وأصبح صديق الجميع، حتى أولئك الذين، مثل بيدرو بالا و«الاستاذ»، لم يكونوا يحبون الصلاة. ولم يلاق صعوبة كبيرة الا مع «ذي الرجل العرجاء». وفي حين كان «الاستاذ» وبيدرو بالا و«القط» لا يبدون اهتماماً بأقوال الكاهن (ومع ذلك، كان «الاستاذ» يحبه كثيراً لأنه كان يحضر له كتباً) فإن «سكر الشعير» و«ذو الكوع الناشف» وجواو غراندي، وعلى الاخص الأول، كانوا يهتمون كثيراً بما كان يقوله. أما «ذو الرجل العرجاء» من جهته كان يبدي عداء عنيداً جداً في البدء، إلا أن الخوري جوزيه بيدرو انتهى به الأمر إلى كسب ثقة الجميع. وهو قد اكتشف على الاقل، في «سكر الشعير» دعوة راهبة، واستعداداً ليكون اكليركياً.

ولكن في مرة بعد الظهر هذه، نظر الصبيان بدون ارتياح كبير إلى مجيء الأب جوزيه بيدرو. اقترب منه «سكر الشعير» وقبل يده، وكذلك فعل «ذو الكوع الناشف» وحياه الآخرون. وأوضح الكاهن سبب مجيئه:

ـ لقد حضرت دعوة لكم جميعاً.

أرهفت الآذان لتسمع. ودمدم «ذو الرجل العرجاء» قائلاً:

ـ سوف يأخذنا للمعتقل. أود تماماً أن أرى من الذي سوف يستجيب له.

لكنه لزم الصمت، لأن بيدرو بالا كان ينظر اليه بغضب. وابتسم الكاهن ابتسامة طيبة. وجلس على صندوق. ورأى جواو غراندي أن جبة الخوري كانت قذرة وعتيقة. وكانت مرقعة بخرق كبيرة بالخيط الأسود وكانت واسعة جداً بالنسبة لنحافة الكاهن. ولكزه بكوعه بيدرو بالا الذي نظر هو أيضاً إلى الجبة. حينئذ قال بالا:

ـ أيها الفتيان، إن لدى الأب جوزيه بيدرو الذي هو صديقنا ما يقوله لكم. عاش الأب جوزيه بيدرو!

كان جواو غراندي يعرف أن هذا كله ناتج عن الجبة الممزقة والكبيرة جداً بالنسبة لنحافة الكاهن. وهتف الاخرون: «مرحى!». ابتسم الكاهن، مشيراً بيده ولم يكن جواو غراندي يحول عينيه عن الجبة. وقد رأى أن بيدرو بالا كان زعيماً حقاً، يعرف كل شيء، ويحس أن يفعل كل شيء. ومن أجل بيدرو بالا، كان جواو غراندي مستعداً لأن يقطع جسمه مزقاً، مثل ذلك الزنجي اللاهوس من أجل بارتورا، سيد الفرسان. ودس الأب جوزيه بيدرو يده في جيب جبته وأخرج كتاب الصلوات الأسود وفتحه، وأخرج من داخله بضع بطاقات ذات العشرة آلاف رييس كل منها.

ـ هذه الأحد أن تذهبوا جميعاً إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة اليوم، في ساحة أبينا حبيب

كان يستطيع أن تتهلل الوجوه أكثر، وأن يسود فرح هائل القاعة كلها. ذلك لأنه على هذا النحو سوف يكون أكثر اقتناعاً بأنه عمل بمشيئة الله حين أخذ من الخمسة كريبروس التي أعطته إياها دونا عيلهرمين سنة لشراء شموع لمذبح العذراء، خمسين كريبروس لاصطحاب «فرسان الرمل» إلى مضمار الخيول الخشبية. ونظراً لأن وجوههم لم تبتهج فحأة. أحس بالحيرة. والأوراق المالية في يده، وهو ينظر إلى عصابات الصغار. وحك بدرو بالا شعره (المسترسل على أذنيه). وأراد أن يتكلم، ولم يستطع. فصرخ حينئذ «الأستاذ». وكان هذا الذي أوضح

ـ يا أبي، أنت رجل طيب. كان يريد أيضاً أن يقول إن الأب هو طيب مثل جواو غراندي، لكنه حسب أنه ربما حسب الكاهن بالاستياء لمقارنته برجل لكن ما يحدث هو أن «ذا الرجل الرخوة» و «ذا الكوع الناشف» يعملان كلاهما في المضمار وكانا مدعوين جميعاً هذا. «الأستاذ» برهة ـ من قبل صاحب المضمار الذي هو صديقهم، لم يكونوا نعرفها هذه السنة. ونحن لا ننسى لك دعوتك

كان «الأستاذ» يتكلم برصانة، منتقياً كلماته، معتقداً أن اللحظة حاسمة. جاء رأى شيء كثيرة. وكان بدرو بالا يوافقه بإيماءة من رأسه

ـ سيكون ذلك مرة أخرى. لكنك لن تغضب لأنه لم نقبل الدعوة، لن تغضب، ليس كذلك؟

فرح يصرخ ان الكاهن الذي عاود وجهه المرح

ـ كلا، لن أغضب. وستكون دعوتي لكم في مرة أخرى

ونظر إلى الأولاد باسماً

ـ لن يكون الأمر فقط هكذا. لأن المعبود نبي

وضعت بعض الأيام من كان سمعهن. واعتقد أنه ربما كان هذا عبرة من الله وتنبيهاً. ربه. أن الكاهن قد ارتكب عملاً سيئاً. وكانت نظرته من الغرابة بحيث أن الأولاد فهموا منه خطوه

كانوا ينظرون إلى الكاهن دون أن يفهموا. ورأى بدرو بالا بين حاجبيه كيف يرى عينه حين مسألة وحاول «الأستاذ» أن يتكلم. يفكر جواو غراندي فهم كل شيء، رغم أنه كان أول ذلك من الجميع

ـ هل كان هذا مال الكنيسة يا أبت؟

وغض شفته، غاضباً من نفسه

لقد فهم الباقون. واعتقد «سكر الشعير» أن هذه كانت خطيئة كبيرة، لكنه أحس بأن طيبة الأب تتخطى الخطيئة. وحينئذ جاء «ذو الرجل الرخوة» وهو يعرج أكثر من العادة، كأنه قادم وهو يصارع ذاته. ووصل إلى قرب الكاهن، وكان يصرخ تقريباً في البدء، مع أنه خفض صوته كثيراً إثر ذلك

ـ نحن نستطيع إعادة النقود إن حيث كانت. لا عليك، فلا تهتم وتسمع الكلام

أن بسامة «ذي الرجل الرخوة» والمودة التي كان الكاهن يقرأها في عيون الجميع (أليست هذه دموعاً، تلك التي يراها في عيني غراندي)؟ قد أعادت إليه الهدوء، وصفاء النفس، والثقة بقدرته وبأهميته. وأجاب بصوته الطبيعي

ـ يا أبنائي، قد أعطتني خمسة كروزيروس لشراء شموع. وأخذت خمسين كروزيروساً منها لكي تركبوا بها خيول المضمار الخشبية. وسيحكم الله ما إذا كنت قد أخطأت أم لا. والآن سوف أشتري شموعاً بالمبلغ كله

كان بدرو بالا يحس بأن عليه ديناً يؤديه نحو الكاهن. كان يريد أن يعرف الأب أن الجميع يفهمونه. ولم يرَ أنه وسيلة، غير هذه. فقد استعد ليتحدى عن العمل لدى كان يمكن أن يسمح خلال فترة بعد ظهر ذلك اليوم، ودعا الأب

ـ سنذهب إلى المضمار رؤية «ذي الكوع الناشف» و «ذي الرجل الرخوة»، لأن لي فترة بعد الظهر. فهل تريد أن تأتي معنا يا أبت؟

وفهم الأب جواب بدرو، لأنه كان يعلم أن هذا يشكل خطوة إلى الأمام في علاقته الحميمة مع «فرسان الرمل». وهكذا ذهبت جماعة مع الكاهن إلى الساحة والجميع يعتذرون عن الذهاب، لكن فيهم «القط» الذي ذهب لزيارة «دالفا». لكن الذين ذهبوا إلى المضمار، كانوا يبدون مثل فريق من الأولاد الصغار الصبيان العائدين من درس في عيد الفصح. ولو كانت ثيابهم جيدة ونظيفة، لكان المرء يحسبهم تلامذة مدرسة داخلية. يخرطهم مرشد الذي كان يلف صفهم

في ساحة الدار، وهو مع الكاهن يفرحون على كل شيء. وأشاروا باعتزاز إلى «ذي الكوع الناشف» الذي كان يحاكي صوت الحيوانات، وإلى «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية وحده. لأن نهورينو كان قد ذهب لاحتساء شيء في إحدى الحانات. ومن سوء الحظ أنه لم تكن الأضواء مشتعلة في فترة بعد الظهر. لم يكن ذلك جميلاً كما هي الحال في الليل حين تدور الأضواء بألوانها المشعة المتعددة. لأن الأطفال كانوا كلهم معجبين بـ «ذي الكوع الناشف» الذي يحاكي صوت

الحيوانات، و «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية، ويقوم باصعاد الأولاد إلى صهوات الخيول، ثم ينزلهم عند انتهاء دورهم.

وقام «الأستاذ» بقلم صغير، وغطاء علبة، برسم «ذي الكوع الناشف» في بدلة قرصان Filibuster كانت لدى «الأستاذ» موهبة خاصة في الرسم، وأحياناً كان يكسب نقوداً برسمه على الرصيف أشخاصاً يمرون، وفتيات صبايا أثناء مرورهن مع خاطبيهن. وكان هؤلاء يتوقفون لحظة، ويمنحون النقود للرسوم غير المحددة بعد، ويقولون:

ـ هذا رسم مشابه جداً.

وكان «الأستاذ» يلتقط القروش ويستمر حينئذ في ريشة الرسم المخطط بالطبشور، وبوسعه، وتصوير المارة من الرجال والنساء المتدللات، دون أن يطرده شرطي من الجادة. وأحياناً، كان المارة يتجمعون قرب الرسام، متأملين في رسومه، وكان بعضهم يقولون:

ـ هذا الولد ذو موهبة واعدة. وخسارة أن لا تهتم الحكومة بهذه المواهب.

وكانوا يتحدثون عن حالات أولاد من الشوارع، مدت لهم بعض العائلات يد المساعدة فأصبحوا شعراء كباراً، ومغنين، ورسامين.

أنهى «الأستاذ» رسمه (الذي أدرج فيه مضمار الخيول الخشبية، وبيدروهو فرانسيسكو حتى الأطفال) وأعطاه للكاهن. وكانوا قد شكلوا جمعاً فريقاً كثيفاً، وراحوا ينظرون إلى الرسم الذي كان الكاهن يمتدحه، حين سمعوا:

ـ ولكن هذا هو الأب خوزيه بيدرو.

وبددت العانس لسه بطارتها المفردة نحو الجماعة مثل سلاح حربي. ولبث الأب خوزيه بيدرو شبه مرتبك. وكان الأولاد ينظرون بفضول إلى عظام رقبة العجوز وصدرها، حيث كانت حلية ثمينة تتلألأ في ضوء الشمس. وكانت لحظة لبث الجميع فيها صامتين. إلى أن استعاد الأب خوزيه بيدرو شجاعته، وقال:

ـ مساء الخير، أيتها السيدة مرغريت.

لكن الآنسة مرغريت ستوس سددت نظارتها الذهبية المفردة، مجدداً:

ـ ألست تخجل لكونك في هذا المكان، يا أبت؟ ألست كاهناً للرب؟ رجل في مثل مسؤوليتك وسط هؤلاء الأوباش.

ـ إنهم أطفال يا سيدتي.

حدجته العجوز بنظرة مستهجنة. ورسم فمها تعبير ازدراء. وأردف الأب قائلاً:

ـ لقد قال المسيح «دعوا الأطفال يأتون إلي».

ـ أطفال... أطفال... وبصقت العجوز.

ـ لقد قال الرب: شقي هو الذي يسيء إلى طفل.

ورفع الأب خوزيه بيدرو صوته فوق ازدراء العجوز. وقالت هذه:

هؤلاء ليسوا أطفالاً، إنهم لصوص الرمال، لصوص. هؤلاء ليسوا أطفالاً. بل يمكن أن يكونوا من أفراد «فرسان الرمال». ورددت فوها هذه بازدراء.

راح الأولاد ينظرون إليها في فضول. كان «ذو الرجل الرخوة» العائد من المضمار، ينظر إلى الأب بيدرو. وبيدروهو فرانسيسكو كان قد عاد، ينظر إلى العجوز بغضب. وخطا بيدرو بالا خطوة إلى الأمام، وأراد أن يوضح:

ـ نريد الأب فقط أن نساعد.

ـ لا تقترب مني. لا تقترب مني، يا قذارة! ولولا الأب، لاستدعيت شرطياً.

وأطلق بيدرو بالا ضحكة فاضحة، حين فكر بأنه لولا وجود الخوري، لكانت العجوز قد فقدت الحلية الذهبية وحتى النظارة بالذات. وابتعدت العجوز بهيئة نبلاء كبير، بعد أن قالت للأب:

ـ على هذا النحو، لن تذهب بعيداً يا أبت. إنه أكثر العلاقات.

كان بيدرو بالا يضحك بصورة أشد، كل مرة. والكاهن هو أيضاً استغرق في الضحك، وإن كان قد أحس بالألم من أجل العجوز، لعدم تفهمها. لكن مضمار الخيول الخشبية كان يدور، حاملاً الأولاد كالاس حدقة. وشيئاً فشيئاً ستدور عيون «فرسان الرمال» نحو المضمار، وصلات برعمة أمطاء الخيول الخشبية، وتدور مع الأضواء. وفكر الأب: إنهم أطفال، نعم.

في بدء الليلة، هطل عارض من مطر. لكن الغيوم تلاشت بسرعة من السماء، وتلألأت النجوم، وتألق البدر. وعند الفجر، وصل «فرسان الرمال»، وسار «ذو الرجل الرخوة» المحرك، وبدوا أنهم لا يشبهون الأولاد الآخرين، وبدوا أنهم ليس لهم أب ولا أم ولا منزل. وأنهم يعيشون من السرقة، كرجال، وأن المدينة تخشى بأسهم كلصوص. وبدوا أقوال العجوز ذات النظارة المفردة. بدوا كل شيء، وأصبحوا مشابهين لجميع الأولاد، ممتطين خيول المضمار الخشبية، دائرين مع الأضواء. كانت النجوم تتلألأ، وتألق القمر البدر. ولكن فوق كل شيء كانت تتلألأ في الليل الباهية، هذه الأضواء الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء، لمضمار الخيول الخشبية اليابانية.

* * *

عمال الموانئ

ألقى بيدرو بالا قطعة نقود من أربعمئة ريس نحو جدار الجمرك، فسقطت قرب قطعة «الشارب اللطيف». وإثر ذلك، ألقى «سكر الشعير» قطعته، فاستقرت القطعة قرب قطعتي بيدرو بالا و«الشارب اللطيف». وكان هذا مقرفصاً، يراقب ويسرع لسيجارة من فمه.

ـ هذا ما يروق لي. لعبة بصورة منه.

وتابعوا اللعبة. لكن «الشارب اللطيف» و«سكر الشعير» خسرا قطعتي الأربعمئة ريس، اللتين وضعهما بيدرو بالا في جيبه قائلاً:

ـ أنا شخص محظوظ كي بيدرو.

أمامهم كانت ترسو زوارق الشحن. وكان رجال ونساء يخرجون من السوق. كانوا سيضربون بضربة بعد الظهر هذه زوارق «حبيب الله» الصيف. وكان المصارع ـ الراقص، ومهنته صياد سمك يعمل في أحد المصائد. وتابعوا لعبهم بالنقود حتى «نصف» بيدرو بالا اللاعبين الآخرين من النقود. كانت البسمة على وجهه تلمع. كان يحب أن يكسب حتى في هذا النحو في لعبة ترفيهية، لا سيما حين يكون شركاء اللعب أقوياء «سكر الشعير» الذي كان رامياً طويلاً يطل بجبهته، ومعه «الشارب اللطيف». وحين انتهوا، قال «الشارب اللطيف» بحزنه:

ـ سوف تقرضني، ولو قرشاً واحداً إذ لم يبق لدي فلس واحد.

ثم ذلك، تطلع نحو البحر، والقوارب في المرسى.

ـ من «حبيب الله» يا ترى؟ سوف يبحر في مرة بعد الظهر. هل سيذهب نحو حوض السفن؟

أجاب «سكر الشعير» بأنه سيبحر «حبيب الله الصيف». لكن بيدرو بالا ذهب مع «الشارب اللطيف» نحو حوض السفن. واجتازا شوارع ميتة، وغرسا أقدامهما في الرمل. وكانت سمكة نحو من العمر الخامس، وكثير من الناس يروحون ويجيئون. وصل بيدرو بالا و«الشارب اللطيف».

ـ لا ترغب في أن تكون بحاراً؟

ـ كم ترى هي مريحة هنا. كلا، لا أريد بحراً.

ـ أما أنا، فأريد ركوب البحر، حين تتسلق موجة صدر الأمواج وعاصفة. أليست جميلة؟ ألا تذكر تلك القصة التي قرأها لنا «الأستاذ»؟ وفي منها عاصفة؟!

ـ حين، يا لها قصة جميلة!

كان بيدرو بالا يتذكر القصة و«الشارب اللطيف» كان يرى من جهة مغايرة. حسب سيكون من السهل جداً، حين يكبر، أن يعيش حياة سهلة كملاح قاطع طريق، فلاندو، يحجره في سفينته، وقرابة تحت ذراعه، ووجهه أسمر، يمدها على. كانت هذه هي حياة التي تمناها حين بعمر من الرجال.

وصلا إلى نهاية العمر. قبل ٧ كان جون داداد م. وهو عامل ميناء زنجي، مسن وضخم قديم للإضرابات، مرهوب الجانب ومحبوب من جميع البحارة. كان جالساً على صندوق. كان يدخن الغليون وعضلاته بارزة تحت القميص. وحين رأى علامتي جدهم:

ـ انظروا إلى الصديق «الشارب اللطيف»، وزعيم بيدرو بالا.

كان يحيي بيدرو «زعيم بيدرو». وكان يحب الكلام معه. وأفسح مكاناً على الصندوق لبيدرو بالا. وقرفص «الشارب اللطيف» تجاهه. وإلى جانبه كانت زنجية مسنة تبيع ثمار البرتقال، ومربى جوز الهند، وهي تلبس تنورة هندية. وقميصاً صغيراً يكشف عن نهديها الضخمين الزنجيين. وكان «لشارب اللطيف» يفحص ثديي الزنجية، في حين كان يقشر برتقالة بعضها من عنق.

ـ ما رأيك بهذا، مقدمة سرج مريحة، أليس كذلك يا خالة؟

ابتسمت الزنجية قائلة:

ـ أولاد اليوم هؤلاء لم يعودوا يحترمون الأشخاص الأكبر سناً منهم. أيها الزنجي جان داداد، أتسمع هذا؟ إنه طفل اليوم غلاماً بهذه السن، يتكلم عن النهدين مع عجوز مسنة مثلي؟

ـ لا تتضجري يا سيدتي يا خالة. إنك ما زلت تحملين بصورة جيدة.

ضحكت الزنجية من صميم قلبها، وقالت:

ـ لقد أفسد الدكان، أيها «الشارب اللطيف». لقد تجاوزت تلك السن المثل. عند من أشرب إلى جون دادام. بعد رأيته حين كان ولداً مشتتاً. لقد قاد الإضراب الأول. هنا في حوض الميناء في ذلك الزمن لم يكن أحد، يا للشيطان. نعرف ماذا

معي لاصرب هل يذكر يه الصديق؟

هز جان د دام. ب ، علامة موافقة ، واغمض عينيه متذكراً الايام البعيدة أيام لاصرب الاول ، لدي بدده على رصفة ميناء . كان هو من اقدم عمال المرفأ ، رغم أنه لم يتعد بعد صعغه في السن

وقال بيدرو بالا

- لرعي د يص شعره ، عشر ثلاثين عاماً مصرورة بثلاثة [15]

وكشف الرعية عن حرتها الصوفية لبيضاء ، وذلك بعد أن سحبت عنها المدين لدي كن يحيط بشعره ، وطرحها اتشارب المصف » قائلاً

- هد يصعني هد ستين ، ترايتها الرعية الملأى بالتصبع

وساله جان د دام

- هل يذكرين رعون ، ابنها الام نويير ؟

« لاشعر » الدي قتل في لاصراب ؟ وكيف لا ؟ أجل ، بني أذكره كان حد الذين يأتون كل يوم بعد الظهر ، ليتحادث قليلاً معي كن يحب المراح

- لقد قتلوه هنا بالذات ، في ذلك اليوم حين سحقت الخيانة العمال

وتصر الى بيدرو بالا ، وساله

- الم تسمع الحديث عنه ابدا ؟ انه برعيم ؟

- كلا

كنت تحب ان الرعية من العمر بعد ذلك ، قضيت ست عشاً في منزل سحص بعد حر ن ان هرب و اثر ذلك ، لم نسمع باسمك الا حين اصبحت زعيماً

نعرس بوس يكنه كن يعلم انك سوف تتمكن من تدمير شؤونك ستنت كم عمرك الآن ؟

اخذ بيدرو يقوم بحساب وقطعه جان داد م

- بين الى خمسة عشرة ، اليس كذلك يا أماه ؟

أحنت الرعية بالايجاب وتابع جان دادام كلامه

- ليوم بدي يشاء ، بان مكانك هنا ، على أرصفة الميناء هنا مكان للعمل ، يحمون بك

(١٥) مس شعي بر ربي

- ملاحظة من المترجم -

- لماذا ؟ هكذا سأل « يشرب اللطيف » ، الذي اقلقته نظرة بيدرو المذهولة

- لأن رعون هو ابوه ، ولأنه مات هنا قتلاً ، مناضلاً من أجل ، وفي سبيل حقنا نحن لقد كان رجلا واكثر كان يساوي عشرة رجال من اولئك الذين نراهم اليوم هنا

- أهو ابي ؟ هكذا سأل بيدرو بالا ، الذي لم يسمع عن هذه القصص ، سوى شائعات غامضة

- نعم هو بوك كان يلقب بـ « الاشقر » ، وحين اندلع الاضراب ، كان يلقي خطبا هنا ، بحيث لا تكن لاعتقد ابداً انه عامل ميناء . لقد اصيب برصاصة ولكن هذا مكان لك على ارصفة الميناء

كان بيدرو بالا يمسح لاسلك بحصاه وتطلع إلى جان د دام

- لماذا لم تحدثني ابدا عن هذا الامر ؟

- لقد كنت صغيراً بحيث لا يمكن أن تفهم و الآن لقد أصبحت أنت رجلاً -

وضحك جان د دام بارتياح

ضحك بيدرو بالا هو ايضاً لقد احس بالسعادة لمعرفة قصة ابيه . لأن هذا كان رجلا يتحدث عنه كل العلام بيدرو بال في كهف

وامي ، هل عرفتها ؟

فكر جان د دام برهة ، ثم قال

- كلا ، لست ادري حين تعرفت الى « الاشقر » لم يكن لديه زوجة يكسب يعيش معه

امراتي فقد عرفتها

كانت الرعية هي التي تتكلم ، وقالت لقد كانت امرأة جميلة جداً (شقفة حلوة !) وراحت قصة بان والدك قد خطفها ، وانها كانت من اسرة غنية من الأعالي ، هناك و شارت إلى مدينة بعالية وقد ماتت وكنت أنت لم تتجاوز الشهر السادس من عمرك في ذلك حين ، كان رعون يعمل في معمل للسجائر ، في يتناحيب بعد ذلك ، حتى ي ارصفة الميناء

وردد جان د دام ، مرة اخرى

جيد جداً

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب ثم سأل

- كان ذلك عملية هذه ، لاصراب ، اليس كذلك ؟

وراحوا يصعدون إلى خان دادام وهو يتكلم عن الأضراب. وحين انتهى، قال بيدرو بالا:

- أما، أحب قيادة اضراب. سيكون هذا شيئاً ممتعاً.

ودخلت باخرة. فنهض خان دادام واقفاً.

- الآن سنقوم بشحن هذه السفينة الهولندية.

كانت السفينة تصفر أثناء مناورات الرسو. ومن جميع الزوايا كان يصل عمال موانئ، ساحبون نحو الممر الكبير. ونظر اليهم بيدرو بالا بحنان. كان أبوه واحداً منهم، وقد مات دفاعاً عنهم. كان يمر، هناك، رجال بيض، وخلاسيون، وزنوج، زنوج كثيرون. انهم سيملأون خزانات السفينة بأكياس الكاكاو، وشحنات من التبغ، والسكر، ومن جميع منتجات ولاية باهيا، هذه المنتجات التي سترحل إلى أوطان نائية، حيث سيقوم رجال مثلهم، وربما طوال القامات، وشقر، بتفريغ السفينة، تاركين خزاناتها فارغة. لقد كان ابوه واحداً منهم. الآن، فقط، أصبح يعرف ذلك. ولأحلامهم، ألقى خطباً، واقفاً فوق صندوق. لقد قاتل، وأصيب برصاصة حين هاجم الجنود الخيالة العمال المضربين. وربما كان دم أبيه قد سال هنا بالذات، حيث يجلس الآن بيدرو بالا. راح الغلام يحدق في الارض المكسوة الآن بالاسمنت. تحت هذا الاسمنت لا بد أن يكون الدم الذي سال من جسد ابيه. لأجل هذا، فإن مكانه ما زال محفوظاً على أرصفة الميناء، يشغله يوم يشاء، بين هؤلاء الرجال. المكان الذي كان لأبيه. حياة شاقة، هذه الحياة مع شحنة ستين كيلوغراماً على الكتفين. لكنه على هذا النحو، سيكون بامكانه أن يقود اضراباً - مثل اضراب اليوم وخان دادام، وأن يقاتل بشراسة، وأن يموت من أجل حقوق الآخرين. وهكذا سينتقم لأبيه. وبعد هؤلاء الرجال في النضال من أجل حقوقهم (كان بيدرو بالا لديه فكرة غامضة عن معنى هذا الامر) كان يتصور نفسه في اضراب، يقاتل. وكانت عيناه تبتسمان كما تبتسم شفتاه.

وقطع حلمه «الشارب اللطيف» الذي كان يمتص البرتقالة الثالثة:

- هل تفكر في موت العجوز التي عذبتك، أيها الأخ العجوز؟

نظرت الزنجية العجوز إلى بيدرو بالا بحنان:

- هذا ابن أبيه. إلا أن شعره مجعد، مثل شعر أمه. ولولا هذه الندبة على وجهه، لما احتجت إلى صورة لرؤية ريمون، أبيه. انه رجل وسيم!

ضحك «الشارب اللطيف» بين أسنانه. وسأل كم يتوجب عليه ثمناً للبرتقال، ودفع

ثمنها مئتي ريس. ثم نظر مجدداً إلى ثديي الزنجية وسأل:

- أليست لك ابنة، يا خالتي؟

- ولماذا تريد أن تعرف، أيها البائس؟

ضحك «الشارب اللطيف».

- كان باستطاعتي أن أتدبر أمري معها.

وقذفته الزنجية بفردة حذائها العتيق. وتجنب «الشارب اللطيف» الضربة.

- لو كان لي بنت، لما كانت لمعارك، أيها التافه!

ثم تذكرت:

- ألن تذهب اليوم إلى الغانتوا(16)؟ سيكون احتفال عظيم. انه عيد أومولو.

- هل سيكون هناك طعام كثير؟ وشراب «الألوا»(17)؟

- سيكون منها الكثير.

وتأملت في بيدرو بالا، ثم سألته:

- لماذا لا تذهب انت أيضاً، أيها الابيض؟ إن أومولو ليس فقط قديساً للزنوج، انه قديس جميع الفقراء.

مد «الشارب اللطيف» يده باشارة تحية، حين تحدثت الزنجية عن أومولو، اله الجدري. كان المساء يهبط، واشترى رجل عربي جوز الهند. واضاءت الانوار بغتة. ونهضت الزنجية. وساعدها «الشارب اللطيف» على وضع طبقها على رأسها. وفي البعيد ظهر «سكر الشعير» برفقة «حبيب الله الطيب». ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى الرجال الذين كانوا، على أرصفة الميناء، يشحنون السلال على السفينة الهولندية. وعلى ظهور الزنوج والخلاسيين العريضة كانت تتلألأ قطرات العرق. وكانت الرقاب مُعَضَّلة (بتشديد الضاد وفتحها) تمضي محنية تحت الشحنات. وتكررت للروائع صور محدثة ضجة شديدة أن يكون يوماً في اضراب مثل أبيه. النضال والقتال من أجل حق. في أحد الايام، عند باب الميناء، على الارصفة، سوف يستطيع رجل مثل خان دادام أن يروي قصته لأولاد آخرين، كما يروي الآن قصة أبيه. كانت عيناه

(١٦) الغانتوا: أحد أحياء باهيا.

- ملاحظة من المترجم -

(١٧) ألوا Aluá: مشروب باهياني، مصنوع من الزنجبيل وضمه من حماض الرز.

- ملاحظة من المترجم -

بيدرو بالا تلمعان بضوء قوي في الليل الذي ساد منذ قليل

ساعدوا «حبيب الله الطيب» في تفريغ صيدة السمك، التي كانت جيدة. وقد ساعده بيانه، واشترى صيدة الأسماك كلها رجل صاحب مسمكة في السوق. إثر ذلك، ذهبوا لتناول الطعام في رستوران قريب. وذهب «سكر الشعير» إلى الأب خوريه بيدرو الذي كان يعلمه القراءة والكتابة. وقبل ذلك، مر الغلام بالمستودع، ليأخذ منه علبة أقلام كان قد نشلها في الصباح، من إحدى المكتبات. واتجه بيدرو بالا، و«الشارب اللطيف»، و«حبيب الله الطيب»، نحو «كندومبليه»[18] في «غانتوا» (وهذا الأخير كان أوغاناً[19]) حيث ظهرت الآلهة «أومولو» بثيابها الطقوسية الحمراء، وأعلنت لأولادها الأعزاء الصغار الفقراء، أن البؤس سينتهي عما قريب، وأنها سوف تنشر الجدري بين الأغنياء، وأن الفقراء سينالون الغذاء الجيد، وسيكونون سعداء. كانت الأتاباكات[20] تعزف في ليلة «أومولو». وقد علمت هذه أن يوم انتقام الفقراء سيأتي. كانت الزنجيات يرقصن، والرجال مبتهجين. أصبح يوم الانتقام قريباً.

راح بيدرو بالا يسير عبر شوارع المدينة بمفرده، إذ أن «الشارب اللطيف» و«حبيب الله الطيب» قد ذهبا يرقصان في حفلة راقصة للزنوج الفقراء. ونزل بيدرو في الطرقات المنحدرة المؤدية إلى المدينة السفلى. كان يسير ببطء، وكأنه يحمل ثقلاً في داخله. كان يمضي وكأنه منحنٍ داخل ذاته. كان يفكر في حديث سمعه الظهر هذا، مع جان دي دام. هذا الحديث الذي أبهجه لأنه أصبح يعرف الآن أن أباه كان من شجعان المرفأ، رجلاً يرتك قصته. لكن جان دي دام تحدث أيضاً عن حقوق عمال الميناء. ولم يسبق أبداً لبيدرو بالا أن سمع قبلاً حديثاً عن هذه الحقوق. ومع ذلك فقد مات والده من أجلها. وبعد ذلك، في الاحتفال بالكوندومبليه في حي غانتوا، قالت الآلهة أومولو، اللابسة زينتها الحمراء، إن يوم انتقام الفقراء أصبح قريباً. كل هذا كان يرهق قلب بيدرو بالا، كما كانت هذه الأحمال التي يزن كل منها مئتي كيلوغراماً، ترهق صدر حمالي الميناء

(18) كاندومبليه: عبد ديني لديانة الزنوج البرازيليين

- ملاحظة من المترجم -

(19) أوغان Ogan: عضو تابع لإحدى كنائس ديانة القبيلة (شبه الوثنية Fetichism)

(20) أتاباكات، جمع أتاباك Atabaque، وهو آلة موسيقية يستعملها الزنوج أثناء احتفالاتهم الدينية.

- ملاحظة من المترجم -

حين وصل إلى أسفل المنحدر، تجه نحو الرمال محساً بالرغبة بالذهاب إلى المستودع ولبرى إذا كان سينام. ونبح عند مروره كلب، ظاناً أنه سينازعه على العظمة التي كان الكلب يقضمها. وفي آخر الطريق، لمح بيدرو بالا شبحاً غامضاً يتحرك. كان كأنه امرأة تسارع الخطى. وحرك جسمه، جسم الغلام الفتي كما يتحرك حيوان فتي لرؤية أنثى، وبخطوات سريعة، اقترب من المرأة التي كانت الآن تدخل إلى ناحية الرمال وأن الرمل تحت قدميه. ولاحظت المرأة أن هناك من يتبعها. وكان بيدرو بالا يستطيع أن يراها جيداً حين كانت تمر تحت ضوء الفوانيس. كانت زنجية صغيرة فتية تماماً، في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ربما في مثل سنه. لكن نهديها كانا ينتصبان حادين، وأليتيها ترقصان تحت الثوب، ذلك لأن الزنجيات حتى حين يسرن بخطوات طبيعية، يبدو أنهن يرقصن. وسادت الرغبة لدى بيدرو بالا، رغبة تضاف إلى أمنية يحس بها كالحقد الذي يثقل على صدره. ولدى تفكيره بتلقي الزنجية الصغيرة لم يعد يفكر في موت أبيه المدافع عن حقوق لعمال المصريين؟ ولا في الآلهة أومولو الداعية إلى الانتقام في احتفال العيد ولباس الفقراء. كان يفكر في إلقاء الزنجية الصغيرة على الرمل الناعم، ومداعبة نهديها القاسيين (ربما كانا نهدين بكرين، وهما على كل حال نديان بتصغيرة) وملامسة جسدها الدافئ، جسد الزنجية.

وسارع في خطاه، لأن الزنجية الصغيرة كانت تبتعد عن الطريق التي تجتاز الرمال، للدخول في هذه الرمال، متعمدة، أي الفتاة، عن مركز الإضاءة. ولكن حين لاحظت أن بيدرو بالا يصبح في كل مرة أقرب إليها، انطلقت إلى الأمام، شبه راكضة. وفهم بيدرو أنها ذاهبة نحو إحدى هذه الطرق القائمة وراء المستودع، الضائعة بين الحقل والبحر، وأنها، إذا كانت تجتاز ناحية الرمال، فذلك لتقصير الطريق، والفرار منه بسهولة أكثر. كان يصمت يسود المرفأ كله. وأزيز الرمل وحده تحت خطى كان يعمي قلب الزنجية الصغيرة يرتعش من الرعب، وقلب بيدرو بالا ينبض لشدة الشهوة بكبه، عند كل خطوة، كان يعدو أقرب إليها، وبعد عشر خطوات، سوف يصل إليها. وكان عليها أن تسير كثيراً قبل أن تصل إلى المستودعات القائمة وراء الرمال والطرقات المتاخمة لها. كان بيدرو يبتسم، سائراً على سيمائه، مثل حيوان مفترس يطارد في الصحراء حيواناً آخر يريده رجة له

وحين كاد يرفع يده ليلمس كتفها وليدير وجهها نحوه، راحت الزنجية الصغيرة تركض. فعدا بيدرو بالا في أثرها، وأدركها بعد قليل لكنه كان ينطلق بسرعة كبيرة بحيث أنه اصطدم بها، وتدحرج الاثنان على الرمل. ونهض بيدرو بسرعة،

ضاحكاً، وأصبح قربها، وهي تستعد للنهوض

- لا داعي لوقوفك، يا جميلة، وضعك جيد هكذا

- ماذا تريد مني؟

- لا تنحرفي، أيتها السمراء. سوف نتحدث قليلاً

أمسك بذراعها، وقلبها نامت على الرمل. واجتاحها الخوف مجدداً، خوف مجنون. كانت قادمة من بيت جدتها، وعائدة إلى بيتها، حيث تنتظرها أم وأخوة. فلماذا تأخرت حتى الليل، ولماذا جازفت بالسير على رمال المرفأ؟ إنها لم تكن تعلم أن رمال الميناء هي سرير الحب لجميع اللصوص، وجميع البحارة، وجميع «فرسان الرمال»، وجميع الذين لا يستطيعون أن يحصلوا على امرأة في ظروف طبيعية، والذين يتعطشون إلى جسد في مدينة باهيا المقدسة. لم تكن تعرف شيئاً من هذا، كانت بالكاد في الخامسة عشرة من العمر. وكانت قد بلغت مبلغ النساء منذ زمن وجيز. وبيدرو بالا كان هو أيضاً بالخامسة عشرة، ولكن منذ زمن طويل أصبح يعرف ليس فقط الرمال وأسرارها، بل أيضاً جميع أسرار الحب. وذلك لأنه إذا كان الرجال يعرفون هذه الأسرار قبل أن تعرفها النساء، فإن «فرسان الرمل» كانوا يعرفونها قبل أي رجل آخر. لكن بيدرو بالا يريد الفتاة لأنه، منذ زمن طويل، كان يحس برغبات الرجل، وكان يعرف منذ غياب الحب. وهي لم تكن تريد ذلك لأنها أصبحت امرأة منذ زمن قليل، وهي تخشى أن تكرس جسدها لخلاسي يتمكن من الحصول على حبها. ولم تكن تريد تسليم نفسها هكذا لأول عابر طريق تلتقي به على الرمل. وطفقت تنظر وعيناها منطفئتان من الخوف. وأمر بيدرو بالا يده على شعر الزنجية الصوفي

أنت «شفقة رائعة» يا سمراء. سوف نصنع نحن الاثنين ولداً صغيراً جميلاً

وضارعت بلا أمل فيه

- دعني، دعني أيها البائس

وراحت تنظر حولها لترى إذا كان هناك شخص تستنجد به، وتستطيع أن تطلب عونه، شخص يساعدها للاحتفاظ بهذه البكارة التي قيل لها إنها ثمينة. ولكن، في الليل، على رمل ساحل باهيا، لا يرى شيء، باستثناء الأشباح، ولا نسمع سوى تنهدات الحب، وتساقط أجساد متعانقة على الرمل

أخذ بيدرو بالا يداعب ثدييها، وكانت هي، من أعماق الرعب، تحس بشيء، خيط من الرغبة. مثل خيط ماء يجري عبر حبال، ويمضي متزايداً، شيئاً فشيئاً إلى أن يتحول إلى نهر قوي. وهذه الرغبة زادت من رعبها. فإذا لم تتصلب ضد الرغبة، واستسلمت

للامتلاك، حينئذ سوف تفقد كل شيء. وستترك على الرمل بقعة من الدم سيضحك منها «جنود المياه» في صباح اليوم التالي. إن وضوح ضعفها منحها تجدد وقوة، وقدرات جديدة. هزت رأسها، وعضت يد بيدرو الذي كان يمسك ثدييها. أطلق بيدرو صرخة، وسحب يده، ونهضت هي وراحت تركض. لكنه أدركها. والآن أصبحت رغبته ممزوجة بالغضب

- سوف ننتهي من قصة هذا الشيء الذي لا يطلق. وحاول أن يطرحها

- دعني أذهب، يا شقي الخطأ. أنت تريد أن تحدث لي شيئاً. يا بائس يا ابن امك الحقير. دعني أذهب. فأنا لا علاقة لي بك

كان بيدرو لا يحب. كان يعرف أخريات يتظاهرن بالشرف، بصورة عامة لأنهن كان لهن عشاق يتصورونهن. وتم يفترض، لحظة واحدة أن الزنجية الصغيرة كانت عذراء. لكنها كانت تقاوم، وتثقله بالشتائم، وتعضه، وتضرب بيديها الضعيفتين صدر بيدرو بالا

- ولكن ماذا تظنين، أيتها الزنجية؟ هل تعتقدين أنني سأدعك تهربين دون أن تسلمي؟ لا تعاندي. إن رجلك لن يعرف أي شيء، ولا أحد سيعرف أي شيء وسترين منذ الآن معي عناق رجل حقيقي

أخذ الآن يحاول منعها. كان يريد أن يسيطر على غضبها، ويجعلها تحس بالرغبة. كانت يداه تنزلقان على جسدها. ومددها بالقوة. والآن أخذت تردد مثل لازمة

- دعني أيها البائس، دعني

وشمر ثوبها البائسة، ثورة هادئة، وظهرت ساق الزنجية الملساء لكن إحداها كانت على الأخرى، وحاول بيدرو بالا أن يباعد بينهما. ورحت لزنجية الصغيرة تقوم من جديد، ولكن نظراً لأن الظلام كان يداعبها، ولأنها كانت تحس بصعود الرغبة العارم، كفت عن شتمه، لكي تتوسل إليه برجاء قلق

- دعني، إني عذراء. كن طيباً ولا تعذبني. سوف تجد امرأة سواي. أنا بكر، وسوف تؤلمني

نظر إليها: كانت تبكي من خوف. وكف عنها لأن إرادتها كانت تضعف، ونهضت حاملة ثدييها

- أنت عذراء؟ هل هذا صحيح؟

- أقسم على ذلك بالله، وبالعذراء مريم. وأخذت تقبل أصابعها موضوعة بشكل صليب

ردد بيدرو بالا
نهد الزنجية الصغيرة نعسان، وساقاها الطفلتان، وحصة الفرح
- هل تعرفين الصحيح؟
- الصحيح أن تقسم على ذلك دعني أذهب أمي تنتظرني
كانت تبكي. وبيدرو يحس بالألم لكن الرغبة كانت قد سيطرت عليه وحينئذ
فرح عندما قال بدافع الرغبة (وكان لسانه يخدعه)
- فقط من الخلف
- لا، لا
- ستصبحين عذراء تماماً. الأمر بسيط
- لا، لا. هذا يسبب الألم
لكنه كان يلاطفها، وارتعش جسدها كله برعشة رغبة حينئذ بدأت تفهم أنها إذا
لم ترضه كما طلب، فستفقد بكارتها. وحين وعدها، كان لسانه يهجس في أذنها
- إذا حدث ذلك لك الآن، فسوف أنسحب
وافقت
- أتقسم بأن ذلك لن يكون من الأمام؟
- أقسم
ولكن بعد أن قضى وطره منها أول مرة (وقد صاحت، وعضت يديها) وإذ رأى
أن الرغبة ما زالت مسيطرة عليها، حاول أن يفض بكارتها. لكنها أحست بذلك
فوثبت مثل مجنونة
- ألم يكفك أنها الدنس قد فعلت معي. هل تريد إنزال مصيبة بي؟
وراحت تبكي بصوت عال، ورفعت ذراعيها، حتى شبهت مجنونة، كانت
صيحاتها، ودموعها، وشتائمها ضد زعيم فرسان الرمال، تشكل دفاعها الوحيد
ولكن بالنسبة لبيدرو، كان أكبر دافع للرغبة هو هاتان العينان المفعمتان بالرعب.
غير أنه كان أضعف، ليست لديه قوة للدفاع عن نفسه. ونظراً لأن الشطر الأساسي من
شهوته قد أرضي، ونظراً لأن قلق بداية اللعبة هذه قد استولى عليه من جديد، فقد
قال لها
- إذا تركتك، هل تعودين غداً؟
- سأعود، نعم.
- لن أفعل لك إلا ما فعلته اليوم. وسأتركك عذراء

هزت رأسها بالإيجاب. كانت عيناها عيني مجنونة وفي هذه اللحظة لم تكن تحس إلا
بالألم، وبالرعب، وبرغبة في الفرار. والآن، حين لم تعد يداه، ولا شفتاه، ولا قضيب
بيدرو تلامس جسدها، فقد انطفأت رغبتها، ولم تعد تفكر إلا بحماية بكارتها
وتمتمت الوعد، حين قال لها
- الآن، تستطيعين الذهاب. ولكن إذا لم تعودي في الغد ... حين سأقبض عليك
سترين بأي حبل تربط العروة
أخذت تسير، دون أن تجيب بشيء. لكن الغلام لحق بها.
- سأرافقك، لكي لا يعترض سبيلك لص ما
سارا معاً، وأخذت تبكي. كان يريد أن يمسك بيدها، لكنها امتنعت، وابتعدت
عنه. حاول مجدداً ومجدداً سحبت يدها. حينئذ صاح
- ماذا يعني هذا، بحق الشيطان!
وسارا واليد باليد. كانت تبكي، وهذا البكاء أثر في بيدرو بالا. مجدداً تذكر قلقه
في ساعات البؤس الأولى، ورؤى أبيه الذي سقط في النضال، ورؤى الأم ... التي
عذبت ... الانتقام. وراح يلعن في دخيلته هذه الرغبة، وأسرع في خطوه،
للوصول في أسرع وقت إلى مدخل الطريق. كانت تبكي بمرارة، فقال لها في غضب.
- ماذا حدث لك؟ لم يحدث لك شيء
اكتفت بالنظر إليه وكانت عيناها (مع أنها كانت ما تزال تسيل إلى جسده، وأنها ما
زالت مرتعبة) مفعمتين بالبغضاء والازدراء. خفض بيدرو رأسه، ولم يعد يدري ما
يقول. ولم يعد في قلبه لا الرغبة ولا الغضب، بل فقط الأسى. وسمعها تنشج ... كان
رجل نفسه في الشارع. واشتد بكاؤها، وراح هو يضرب الرمل بقدميه. الآن كان
يحس بأنه أكثر ضعفاً منها، وكانت يد الزنجية الصغيرة تثقل يده، وكأنها من
رصاص ... فابتعدت الفتاة عنه، فلم يصح. كان يتمنى لو أنه لم يلتق بها ولو
أنه لم يلمس ... ولو أنه لم يذهب إلى حي غاسوا
ووصلا إلى الطريق، وقال لها
الآن تستطيعين الذهاب لن يجيء إليك أحد. ونظرت إليه مجدداً ببغضاء،
وراحت تركض. ولكن عند أقرب زاوية من الطريق، توقفت، والتفتت نحوه،
(وكان ما يزال ينظر إليها) وانهالت عليه بالشتائم واللعنات، بصوت ملأه خوفاً
- فليرافقك الطاعون والجوع والجرب، أيها الشقي. وليعاقبك الله، أيها الشقي، يا
ابن البغي، الدنس، البائس. كان صوتها المفرد يعبر الطريق، ويثير قلق بيدرو بالا

أما هي، فقبل أن تختفي عند منعطف الشارع، سقطت على الأرض، في ازدراء شديد جداً وكررت قائلة

- شقي شقي

لبث ساكناً في الهدء، ثم انطلق راكضاً عبر الرمال، وكان منطلقاً كأن الرياح تسوطه، وكأنه يفر من لعنات الزنجية الصغيرة. وكان يحس برغبة في الارتماء في البحر لكي يغسل نفسه من كل هذا القلق، وبالرغبة في الانتقام من الناس الذين قتلوا أباه، بها العصاة التي يحس بها ضد المدينة نفسها، التي كانت تمتد في الجانب الآخر من البحر، في أحياء «الحاجر»، و «النصر»، و «النعمة»، ويأس حياته كولد متشرد، تخلى عنه أهله، ولد مطارد (ممسوح الرأس)، والأم الذي كان يحس به إزاء الزنجية الصغيرة المسكينة، التي هي ولد أيضاً

«ولد، هي أيضاً»، هذا ما كان يسمعه في صوت الرياح، وفي السأم الذي يعتريه رجل مجهول، وصوت يقول ذلك في نفسه

مغامرة أوغون

في ليلة أخرى، ليلة شتوية قاتمة، لم يكن الصيادون خلالها يغامرون بركوب البحر، لليلة غضب يايانجا وكسانغو، في حين كانت ومضات البرق هي الضوء الوحيد في السماء المسدودة بغيوم ثقيلة وسوداء، ذهب بيدرو بالا، و «دو الرحل الرخوة»، وجواو غراندي، لمرافقة الماي - دي - سانتو دون آنينها، إلى منزلها البعيد. وكانت قد جاءت إلى المستودع في فترة بعد الظهر طالبة منهم خدمة ما، وفي حين كانت توضح ما تريد، حل الليل، مذهلاً ورهيباً.

- لقد غضب أوغون. قالت الماي - دي سانتو هذه موضحة

وهذا هو السبب نفسه الذي قادها إليهم. وأثناء مداهمة الشرطة لأحد المعابد - الذي، وإن كان ليس هو معبدها، لأنه ما من شرطي يتجاسر على مداهمة معبد آنينها، - فهو موضوع تحت حمايتها - استولت الشرطة على صورة أوغون، التي كانت موضوعة على مذبح معبدها. وقد استخدمت دون آنينها كل سلطتها لدى أحد الحراس لكي يستعيد القديس. بل لقد ذهبت إلى منزل ستاد في كلية الطب، صديقها، الذي كان يأتي لدراسة الدين الزنجي في معبدها، طالبة إليه إعادة الإله. وكان البروفيسور يعتقد تماماً أنه سيحصل من الشرطة على إعادة الصورة، ولكن لكي يضيفها إلى مجموعته من الأوثان الزنجية وليس لإعادتها إلى مذبحها في المعبد البعيد. هذا السبب، ولأن أوغون كان في غرفة المعتقلين في مركز الشرطة، فإن كسانغو، في تلك الليلة، كان يطلق بروقه العاصفة. وفي النهاية جاءت دون آنينها إلى حيث يقيم «فرسان الرمال»، أصدقاؤها منذ زمن طويل، لأن جميع الزنوج، وجميع فقراء باهيا هم أصدقاء الماي - دي - سانتو وكان لديها لكل منهم، كلمات ودية وأمومية. إنها تشفي المرضى، وتجمع العشاق، ورقى سحرها تقتل الأشرار. وأوضحت ما حدث لبيدرو بالا. لم يكن زعيم «فرسان الرمال» يرتاد المعابد الشعبية كما أنه لم يكن يصغي إلى دروس الأب جوزيه بيدرو لكنه كان على حد سواء، صديق الكاهن، وصديق الماي - دي - سانتو، وعند «فرسان الرمال»، حين كان هناك صديق، يخدمون هذا الصديق

والآن كانوا يرافقون آنيها إلى مسرها. كان الليل حولهم مضطرباً ومفعماً بالنصب. وكان المطر يحمي اجسامهم تحت مظلة الماي - دي - سانتو البيضاء الكبيرة وكانت طبول المعابد الشعبية تدق بايقاع لرد الاهانة التي الحقت بأوغون، وربما في أحد هذه المعابد، أو في العديد منها، كانت أومولو تندد بانتقام الناس الفقراء. وقالت دون آنيها بصوت مرير.

- إنهم لا يدعون الفقراء يعيشون. وهم لا يتركون اله الفقراء في سلام. الفقير لا يستطيع ان يرقص، ولا أن يرتل لأله، ولا أن يطلب نعمة من إله.

كان صوتها مريراً. صوت لم يكن يبدو أنه صوت ماي - دي - سانتو دون آنيها. وتابعت تقول: إنهم يكتفون بترك الفقراء يموتون من الجوع. فالآن ينتزعون القديسين من الفقراء. ورفعت قبضتها.

احس بيدرو بالا بموجة تعصف في داخله. لم يكن الفقراء يملكون شيئاً. كان الاب خوزيه بيدرو يقول ان الفقراء، سيذهبون في يوم من الأيام الى ملكوت السماوات، حيث سيكون الله واحداً بالنسبة للجميع. لكن عقل بيدرو بالا الفتي لم يكن يجد أية عدالة في ذلك. في مملكة السماوات الجميع سيكونون متساوين. لكنهم على الارض ليسوا كذلك. فكفة الميزان تميل دائماً إلى جانب معين.

بأشد من أنغام الاغوغوات والأتاباكات[21] التي كانت ترد الاهانة الملحقة بأوغون، كانت لعنات ماي-دي-سانتو دون آنيها تملأ الليل. وكانت دون آنيها، ذات القامة الطويلة والنحيفة، تمثل نموذجاً ارستقراطياً للزنجية، وكانت تحسن ارتداء ثياب الزنجيات الباهيانيات، أفضل من أية أمرأة أخرى. كان وجهها مرحاً، مع أن نظرة واحدة منها كانت كافية لان توحي باحترام مطلق في هذا. كانت تشبه الأب خوزيه بيدرو. لكنها الآن كانت ذات هيئة مفزعة، ولعناتها ضد الاغنياء وضد الشرطة كانت تملأ ليل باهيا. وقف بيدرو بالا

وحين تركها، محاطة بـ «بنات القديسات»، اللواتي كن يقبلن يدها، وعدها بيدرو بالا قائلاً:

- لا تهتمي، يا أم دون آنيها. غداً سوف اعيد إليك أوغون

(٢١) الاغوغوات والاتاباكات: جمع اغوغو وأتاباك، وهما آلتان موسيقيتان يستخدمهما الزنوج في احتفالاتهم الدينية. - ملاحظة من المترجم -

ضربت يدها على رأسه الأشقر، وابتسمت. وقبل جواو غراندي و «ذو الرجل الرخوة» يد الزنجية، وهبطوا جميعاً طريق السفح، وكانت الاغوغوات والاتاباكات تصدح لغسل الاهانة التي الحقت بأوغون.

لكن «ذا الرجل الرخوة» من جهته، لم يكن يؤمن بأي شيء، لكنه كان يريد خدمة دون آنيها، وسأل:

- ماذا سنفعل؟ إن «الصاعقة» هي مع الشرطة

نصق جواو غراندي، وقد انتابه خوف ما

- لا تقل عن أوغون إنه «صاعقة» يا «ذا الرجل الرخوة»

ومزح «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

- إنه سجين فهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء

صمت جواو غراندي، ذلك لأنه كان يعلم أن اوغون قوي جداً، وانه، حتى وهو في السجن، يستطيع أن يعاقب «ذا الرجل الرخوة». وحث بيدرو بالا دقيقة، وطلب سيجارة

- دعني اختبر هذه المسألة. هناك حسابات يجب أن نؤديها. لقد وعدنا دون آنيها ولأن يجب أن نقوم بذلك

نزلوا نحو المستودع. كان المطر يدخل عبر ثقوب السقف. وكان أكثر الصبيان ينكدسون في الزوايا، حيث السقف غير مثقوب. وقد حاول «الاستاذ» اشعال شمعة، لكن الريح بدت أنها تلاعبه فكانت تطفيء الشمعة لحظة بعد لحظة. وفي النهاية تخلى عن القراءة، وانهمك في لعبة «السعة والنصف» مع «القط» الذي كان يشرف على الصندوق، يساعده «الشارب اللطيف» في احدى الزوايا. وكانت قطع العملة تتدحرج على الأرض، ولكن لم يكن بوسع اي صوت أن يلهي «سكر الشعير» عن صلواته أمام العذراء مريم، والقديس انطوان.

في ليالي الشتاء هذه، لم يكن في استطاعتهم النوم. ولحظة بعد أخرى، كان وميض برق يضيء المستودع، وحينئذ كانت تنحسر الوجوه النحيلة والقذرة «للعرسان الرمال». وكان كثيرون منهم صغاراً، بحيث أنهم كانوا يخافون التنانين والمسوخ الأسطورية. وكانوا يلوذون بالاكبر منهم سناً، الذين لم يكونوا يحسون سوى البرد والنعاس والجوع. وهم منزوون، كانوا يسمعون عبر دوي الرعد، صوت كسانجو وبالنسبة للجميع، كانت ليالي العاصفة هذه رهيبة مفزعة. وحتى «القط»، الذي كان لديه صدر امرأة يريح عليه رأسه الصبياني، كانت ليالي العاصفة ليالي سيئة. لأنه في

هذه الليالي، كان رجال ـ في المدينة ليس لديهم لكي يريحوا رؤوسهم الخائفة، سوى سرير رجل غريب، وهم يريدون اعراق رعبهم في صدر امرأة ـ في هذه الليالي، كان رجال يدفعون المال ليناموا مع «دالفا»، ويدفعون جيداً وهكذا، ظل «القط» في المستودع، منوياً الصندوق، مع أوراقه المربعة، يعاونه في العش «الشاوب اللطيف».
كانوا يجلسون كلهم، مجتمعين قلقين، لكنهم كانوا وحدهم مع ذلك، يحسون بأنه ينقصهم شيء ما، وليس فقط سرير دافىء في غرفة مقفلة جيداً، بل أيضاً الكلمات حنون من أم أو من أخت، تذيب خوفهم كانوا يتجمعون مكدسين بعضهم إلى جانب بعض، وبعضهم يرتجف من البرد، تحت قمصانهم وبنطالاتهم الممزقة وآخرون كانوا يسوون سترات صغيرة مسروقة، أو ملتقطة عن المزابل، وهي سترات يستعملونها كمعاطف من كان لدى «الاستاذ» معطف كبير جداً، بحيث كان يكنس به الأرض

في أحد الايام، وكان ذلك في الصيف، توقف رجل، وكان يرتدي معطفاً كبيراً، لشرب مرطبات في أحد مطاعم المدينة كان يبدو أنه غريب كان ذلك في منتصف فترة بعد الظهر، وكان اخر شوي الاحساد لكن الرجل كان يبدو أنه لا يحس بالحر، لابساً معطفه الجديد واعتبر «الاستاذ» أن منظر الرجل طريف، وقد اعجبه منه بوجه خاص، شكل رأسه الغريب وبدأ يرسم هذا الرجل (مع معطف هائل الضخامة، أكبر من الرجل)، وذلك بالطبشور، على الرصيف وكان «الاستاذ» يضحك بسرور، لأن الرجل، ربما سيعطيه قطعة ذات الألفي ريس واستدار الرجل على كرسيه، ونظر إلى الرسم، شبه امتهي وكان «الاستاذ» يضحك إذ كان يرى الرسم معترا، مع هذا المعطف الذي سيطر على الرجل، ويعلمه على امره لكن الرجل لم يتذوق المسألة، واستوى عنه غضب شديد، فنهض عن كرسيه، ولبط «الاستاذ» بلطتين فأصابت احداهما العلام في خصره، فتدحرج على الرصيف وهو يئن ووضع الرجل أيضاً قدمه على وجه الصبي، وقال له وهو يبتعد محتقر الوجه

ـ خذ أيها الأزعر، لتتعلم أن تسخر من الناس

وانطلق وهو يرن النقود في كمه، بعد أن محا الرسم نصف محو وهرعت الدبة وساعدت «الاستاذ» على النهوض ونظرت باشفاق إلى الرسم وقالت

ـ يا مسكين! زعم أن الرسم مشابه له احمق!

ودست يدها في جيبها، حيث كانت تحتفظ بما ناله من بقشيش، وأخرجت قطعة ألف ريس. وأرادت أن تعطيها لـ «الاستاذ» لكنه رفضها، كان يعلم أنه بحاجة

إليها، لكنه لم يستطع أخذها، وأخذ يتأمل في الرسم شبه الممحو، وتابع طريقه، ويداه على جسمه كان يسير دون أن تراوده أية أفكار، والغصة في صدره لقد أراد ارضاء الرجل، وأن يستحق قطعة نقود منه وقد تلقى لبطتين وكلمات فظة لم يكن يفهم لماذا هم مكروهون هكذا في المدينة؟ إنهم أولاد فقراء، بدون أب ولا أم فلماذا يكرههم هكذا أولئك الرجال ذوو الملابس الجيدة؟ مشى يرافقه ألمه، ولكن حدث أنه التقى من جديد في الصحراء الرملية تحت الشمس، على طريق المستودع، بعد فترة قصيرة، بالرجل ذي المعطف كان يبدو أنه يتجه نحو احدى السفن الراسية في المرفأ وكان، الآن، يحمل معطفه على ذراعه، ذلك لأن الشمس كانت محرقة استل «الاستاذ» سكينه (وكان نادراً ما يستعمله) واقترب من الرجل وكان هذا قد ابتعد عن الرمال حيث الناس، وكان الرجل ذو المعطف يمر عبر الرمال، ليقصر الطريق المؤدية الى المرفأ والدس «الاستاذ» في صمت وراء الرجل، وحين أصبح قريباً منه، انتصب امامه، وفي يده السكين ان مجرد رؤية الرجل قد حولت متاهة مشاعره إلى شعور وحيد لانتقام ونظر إليه الرجل مرتعباً كان «الاستاذ» يفكر في مواجهته، وسكينه في يده وهمس من بين اسنانه

ـ ليلك عني، انها للص

تقدم «الاستاذ» مع سكينه، وامتقع وجه الرجل

ـ ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني هذا؟ وراح ينظر في كل ناحية، آملاً بأن يرى ظهور شخص ما ولكن على رصيفة المرفأ البعيدة، كان يرى رجالاً يعيدون ايضاً حينئذ راح الرجل ذو المعطف يجري لكن «الاستاذ» وثب عليه وطعن يده بسكينه، فألقى الرجل معطفه على الأرض، وكان الدم يسيل من يده على الرمل وانطلق «الاستاذ» في اتجاه معاكس. وفي لحظة لا يدري ماذا يفعل من يبحث حارس أن يظهر، ثم سينضم اليه حراس كثيرون يشتركون في مطاردته مع الرجل وإذا كانت سفينة الرجل ستبحر فوراً، فإن كل شيء سيكون على ما يرام. وستكون المطاردة قصيرة الامد ولكن اذا تأخرت السفينة في الرحيل، فسيطارده الرجل بالتأكيد، إلى أن يدركه، ويودعه السجن وحينئذ تذكر «الاستاذ» الفتاة خادمة المطعم، فاتجه نحوه، ومن الحديقة المواجهة للمطعم، أشار إلى الفتاة بأن تأتي فركضت الفتاة نحوه، وفهمت بسرعة حين رأته ومعه المعطف وحذرها «الاستاذ»

ـ هناك جرح في يده

ضحكت الفتاة

ـ لقد استمعت أليس كذلك؟ وأخذت المعطف إلى المطعم، ووضعته في مكان أمين، واختفى «الأستاذ»، إلى أن عرفت القصة. لكن «الأستاذ» كان يسمع من مكانه، حركة أجراس عبر الرمال، وفي الطرقات المجاورة. على هذا النحو حصل «الأستاذ» على المعطف، الذي لم يرد بيعه أبداً. فقد كسب معطفاً وكثيراً من القصص. وبعد ذلك بأعوام، حين أدهشت لوحاته الجدرانية الكبيرة، البلاد (كانت تمثل موضوعات عن حياة أولاد مشردين، ومتسولين كبار السن، وشغيلة وعمال موانيء يقومون بهدم السجون)، وقد لوحظ أن الفقراء والبرجوازيين الضخام الأجسام، كانوا يظهرون دائماً في رسوم «الأستاذ»، مرتدين معاطف ضخمة، تتمتع بشخصية أكثر من لابسيها. دخل بيدرو بالا، وجواو غرانده، و«ذو الرجل الرخوة» إلى المستودع. واتجهوا نحو الجماعة التي كانت تلعب حول «القط». وحين وصلوا توقف اللعب لحظة. وألقى «القط» نظرة على الثلاثة.

ـ هل تلعبون معنا لعبة الصف؟

فأجاب «ذو الرجل الرخوة».

ـ وهل تظهر علي أني أبله؟

جلس جواو غرانده يراقب. وابتعد بيدرو بالا مع «الأستاذ» إلى إحدى الزوايا. كان يريد إيجاد وسيلة لانتزاع صورة أولغون من الشرطة. وتناقشا ربعاً من الليل. وكانت الساعة الحادية عشرة تدق، حين خاطب بيدرو بالا، قبل خروجه جميع «فرسان الرمال».

ـ أيها الأصدقاء، سوف أقوم أنا بضربة قوية. فإذا لم أحضر إلى هنا غداً صباحاً فسأكون في المخفر. وسوف يدفعونني لكي أنفى في دار الإصلاحية. سوف أفر ولكنكم سوف تسمعون بأخباري من هناك.

وخرج ورافقه جواو غرانده حتى الباب، وانضم «الأستاذ» مجدداً إلى «القط». كان الفتيان الأصغر سناً ينظرون إلى رحيل زعيمهم بشيء من الخوف. لقد وضعوا في بيدرو بالا ثقة كبيرة، وبدونه، كثيرون منهم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم. وخرج «سكر الشعير» من زاويته، قاطعاً صلاته.

ـ ما هي المسألة؟

ـ ذهب بيدرو للقيام بمهمة صعبة، وإذا لم يعد في الغد، فذلك يعني أنه قد قبض عليه.

ـ سوف نخرجه من السجن! هكذا قال «سكر الشعير» بلهجة طبيعية، وما كان

يمكن أن يقال إنه قبل دقائق كان يصلي، أمام صورة العذراء، خلاص روحه الصغيرة، روح اللص. وعاد إلى قديسيه، ليصلي من أجل بيدرو بالا.

واستؤنف لعب الورق. في الخارج كان المطر وومضات البرق، والرعد والسحب في السماء. كان برد شديد يسود المستودع. وقطرات من الماء تتساقط على الأولاد الذين كانوا يلعبون. لكن اللعب، الآن لم يعد يستأثر باهتمامهم. و«القط» هو نفسه كان يتمنى أن يكسب. وفي المستودع كان يسود نوع من الارتباك. وقد استمر ذلك إلى أن قال «الأستاذ».

ـ سوف أذهب لأرى ماذا يحدث.

وقد رافقه جواو غرانده، و«القط». في تلك الليلة، كان «سكر الشعير» هو الذي رقد عند باب المستودع، والخنجر تحت رأسه وقربه، كان «ذو الكوع الناشف» يسبر غور الظلام بوجهه القاتم. وكان يتساءل أين يمكن أن يكون، في هذا الليل المظلم، جماعة لامبيو. ربما كانت، في هذا الليل العاصف، تقاتل الشرطة كما سيفعل بعد قليل بيدرو بالا. وكان «ذو الكوع الناشف» يعتقد بأن بيدرو بالا حين سيصبح من الرجال، سيكون مثل شجاعة لامبيو. كان لامبيو سيد البر الداخلي، وسيد السهوب التي لا نهاية لها. وسيكون بيدرو بالا سيد المدينة، والمدن والشوارع، وأرصفة المرفأ. و«ذو الكوع الناشف» الذي هو من البر الداخلي، يستطيع أن يمضي عبر السهوب، وعبر المدن، لأن لامبيو كان عرابه، وبيدرو بالا صديقه. وقد صاح الدمث، وكانت تلك إشارة إلى أن «ذا الكوع الناشف» كان سعيداً.

حين كان بيدرو يرقى جانب الجبل، كان يستعيد ذهنياً خطته. لقد وضعها مع عدة «الأستاذ» ومن بين جميع العمليات التي جازف بها، كانت العملية الحالية أكثرها خطراً. لكن الذين آبيها تستحق أن يتعرض هذه المخاطرة من أجلها، فحين كان يمرض أحدهم، كانت تحضر الأدوية المصنوعة من أوراق النبات، وتعنى به، وفي كثير من الأحيان تشفيه. وحين كان يظهر في أرضها غلام من «فرسان الرمال»، كانت تعامله كرجل، وتعطيه أفضل ما عندها من طعام وشراب. كانت الخطة مجازفة، وربما لن تعطي أية نتيجة. وبيدرو بالا، بعد أن يدخل السجن بضعة أيام، سينتهي به الأمر إلى الإصلاحية، هناك حيث الحياة أشد بؤساً من حياة الكلب. ولكن كانت هناك فرصة لأن تنجح الخطة. وسيلعب بيدرو بالا لعبة الكل بالكل على هذه الإمكانية. ووصل إلى ساحة «المسرح». كان المطر يهطل، ورجال الشرطة يتقون المطر بمعاطفهم. وراح بيدرو يرتقي على مهل، طلعة ساو ـ بنتو، وسلك الطريق عبر ساو ـ

بيدرو، وجاز ساحة «السداد»، وسلك شارع «روراريو»؛ والآن أصبح أمام «المركز الرئيسي للشرطة». تراقب أبوابه وتحرك رجال الشرطة، والمفتشين الذين كانوا يدخلون ويخرجون. وبين دقيقة وأخرى، كان يمر ترام، دافعاً القضبان الحديدية إلى الصرير، رائداً من صلاة الشارع المضاء صلاةً. وقد أبلغه الحارس وهو صديق دون انتباهها. أن بخاير «أوغون» موجود في قاعة المعتقلين، ملقى على حرانة، في وسط أشياء أخرى مسروقة. صودرت أمس، مداهمات مختلفة قامت بها الشرطة لمنازل لصوص. وفي هذه القاعة، كان يوضع أولئك الذين اعتقلوا أثناء الليل. قبل أن يجري استجوابهم سراً، من قبل المندوبين، أو من قبل مفوضي الخدمة، والذين يجري إرسالهم بعد ذلك إما إلى السجون، وإما إلى الشارع (أي يطلق سراحهم). وهناك، في زاوية، في البداء. في جو به كأس تمتلئ بسرعة، ثم إلى جانبه أو فوقها. كانت توضع أشياء غير ذات قيمة، جرت مصادرتها أثناء مداهمات رجال الشرطة. وكانت خطة بيدرو بالا تقوم في أن يقضي الليل، أو شطراً منه، في قاعة المعتقلين، والخروج (إذا استطاع الخروج) حاملاً معه الآلة أوغون. وكانت لدى بيدرو بالا أعصبية كبيرة. كان مجهولاً لدى الشرطة. وبالإضافة إلى ذلك، كان عدد قليل جداً من الحراس يعرفونه كمتشرد في الشارع. رغم أن جميع الحراس، وحتى بعض المفتشين، يرغبون بشدة في القبض على زعيم «فرسان الرمال». وكانوا يعلمون عنه فقط أن في وجهه ندبة، وأمرّ بيدرو بالا يده على هذه الندبة. لكنهم كانوا يظنونه أطول قامة، مما هو في الواقع، وكانوا يعتقدون أن بيدرو بالا هو خلاسي، وأكبر سناً. وإذا ما توصلوا لمعرفة زعيم «فرسان الرمال»، فإنهم لن يرسلوه إلى الإصلاحية، حيث يسهل الفرار، بل سيرسلونه إلى السجن، حيث لا يسهل الفرار على كل حال.

سار بيدرو بالا حتى كامبو غراندي. لكنه لم يعد يسير بتلك الخطوة اللامبالية، خطوة لص شوارع المدينة. بل كان يمضي الآن وهو يترنح مثل ابن عار، وقد أسدل كسكته على عينيه بسبب المطر، رافعاً قبة سترته السوداء (كان صاحبها في الماضي، رجلاً طويل القامة).

كان حارس يقف تحت شجرة بسبب المطر. واقترب منه بيدرو بالا. كان ينشد خائفاً. وحين خاطب الحارس، كان صوته صوت ولد خائف من ليل المدينة العاصف.

- سيدي الحارس

نظر إليه الحارس

- ماذا تريد، أيها الغلام

- أنا لست من هنا. أنا من مارغراندي. وقد جئت مع والدي اليوم

لم يدعه الحارس يكمل كلامه. بل قاطعه:

- وماذا تعمل هنا، يا صبي؟

- لست أدري أين أنام. أود أن تسمح لي بالنوم عند الشرطة

- مقر الشرطة ليس فندقاً، أيها الأزعر. هيا، اذهب من هنا، اذهب. وأشار إلى بيدرو بالابتعاد

حينئذ حاول بيدرو إتمام المحادثة، لكن الحارس هدده بهراوته

- اذهب ونم في حديقة، اذهب من هنا

ذهب بيدرو وعلى وجهه غم وألم. واستمر الحارس يرصد الغلام. وتوقف بيدرو عند محطة الترام، وبقي ينتظر. لم ينزل أحد من الحافلة الأولى، ولكن من الحافلة الثانية نزل زوجان. انقض بيدرو بالا على المرأة ورأى الرجل أن الغلام يريد أن يخطف محفظتها، فأمسك به من ذراعه. وكان الفتى يقوم بالعمل بصورة سيئة، بحيث لو رآه أحد من جماعة «فرسان الرمال» لما عرف أن هذا الغلام هو زعيمهم. وكان الحارس الذي تابع المسألة قد وصل إليهم.

- ذلك على هذا النحو، أنت لست من هنا. أيها اللص الـ...

وابتعد، قابضاً على بيدرو بالا من ذراعه. كان الغلام يسير ووجهه نصف خائف، ونصف ضاحك

- لقد فعلت هذا لكي تقبض علي.

- ماذا؟

- إن كل ما قلته، هو الحقيقة. إن والدي بحار، ولديه زورق في مارغراندي واليوم، ترك هنا، ولم يعد بسبب العاصفة. وأنا لا أدري أين أنام. لقد طلبت النوم في المخفر، وأنت لم ترد ذلك. وحينئذ تظاهرت بأنني سأسرق امرأة وذلك فقط لكي تقبض علي. والآن، لدي مكان أنام فيه.

- ولكن ... طويل

كان ذلك هو الجواب الوحيد للحارس. ودخلا إلى مركز الشرطة. واختار الحارس زورقاً، وترك بيدرو بالا في غرفة المعتقلين. كان فيها خمسة أو ستة رجال. وقال الحارس مزمجراً

- الآن تستطيع النوم. يا ابن ... الخنزير. وبعد ذلك، حين سيأتي المفوض، سترى كم من الزمن ستنام هنا

لزم بيدرو الصمت. ولم يعره المعتقلون الآخرون أي انتباه، وكانوا يهتمون أكثر بكثير بشخص لوطي قبض عليه، وهو يقول إنه يدعى «ماريبيت». وفي إحدى الزوايا، شاهد بيدرو الخزانة وكانت صورة «أوعون» على جانبها، قرب سلة الورق. وفي حين كان الآخرون يتحادثون، لف تمثال أوعون (لم يكن كبيراً، وكان هناك تمثيل أكبر منه بكثير) في سترته، وتمدد على الأرض ووضع يده على الرزمة، وتظاهر بالرقاد.

استمر معتقلو تلك الليلة يسخرون من اللوطي، باستثناء رجل عجوز كان يرتعد في زاوية. كان بيدرو يجهل ما إذا كان بكاء الرجل من البرد أم من الخوف. لكنه سمع صوت زنجي شاب يقول لـ «ماريبيت»:

- من الذي فض بكارتك؟
- أوه، دعني. هكذا أجاب اللوطي ضاحكاً.

وقال الآخرون: لا... تحدث لنا، احك.

- آه... إنه سوبولد... آه!

استمر العجوز يرتعد. ولاحظه في الزاوية لص حفر الجدري وجهه.

- لماذا لا نلتصق بهذا العجوز؟

هكذا سأل الزنجي الذي كان يعلك لساناً، الفتى المسمى «ماريبيت».

قال الفتى اللوطي: ألا ترى أنني لا أركض وراء العجائز؟ ثم، هذا سكير، دعه عني.

والآن، كان حارس يضحك عند الباب، وانتصب الرجل المجدور الوجه نحو العجوز الذي انكمش على نفسه.

- أما أنت. فكنت تريد تماماً لو أن هذا الفتى، «ماريبيت» قد دبرك. أليس كذلك يا عماه؟
- أنا رجل عجوز ولم أفعل أي شيء. هكذا همس العجوز، أكثر من كونه تكلم. أنا لم أفعل أي شيء، وابنتي ستنتظرني.

خزر بيدرو الذي كان مغمض العينين، أن الرجل كان سكيراً. لكن بيدرو استمر يتظاهر بالنوم. كان تمثال «أوعون» يؤلم رأسه. وواصل المعتقلون يمزحون في صدد الفتى اللوطي والعجوز، إلى أن وصل حارس آخر، قال للعجوز:

- هيا، أيها العجوز... هيا بنا.

قال العجوز بجدية: أنا لم أفعل أي شيء. إن ابنتي تنتظرني... كان غاضباً

الجميع، الحراس والمعتقلين، وكان يرتجف بشدة بحيث أن الجميع أحسوا بالألم، وحتى اللص المجدور الوجه، قد خفض عينيه. كان الفتى اللوطي وحده يبتسم.

ثم بعد العجوز. ثم جاء دور الفتى اللوطي وغاب فترة طويلة، وقد أوضح الرجل مجدور الوجه أن «ماريبيت» هو من عائلة طيبة وبالطبع، كان قائد الشرطة يجري اتصالاً هاتفياً بأهله، طالباً أن يحضروا لأخذه، لكي لا يضطر لاعتقاله هذه الليلة. وبين حين وآخر، حين يتعاطى كمية كبيرة من الكوكايين، كان يحدث فضيحة في الشارع، ويعتقله أحد الحراس. وحين عاد «ماريبيت»، كان ذلك فقط لأخذ قبعته. وحينئذ رأى بيدرو ملقى على الأرض فقال:

- إنه فتي جداً، هذا الغلام. لكنه جميل جداً... بصق بيدرو، وعيناه مغمضتان، ثم قال:
- اذهب يا لكع، قبل أن أسحق بورتك.

ضحك الآخرون، وحينئذ فقط، خاطبوا بيدرو.

- ماذا تصنع هنا، يا جرذ الكنيسة؟
- هذا لا يعنيك، يا شجرة السعادين. هكذا أجاب بيدرو الرجل ذا الوجه المجدور.

الحارس نفسه أخذ يضحك، وأوضح للآخرين قصة بيدرو. لكن الزنجي الشاب استدعي بدوره، وبقي الباقون صامتين. كانوا يعلمون أن الزنجي قد سدد طعنة سكين إلى رجل في مقهى. وحين عاد، كانت يداه متورمتين من الضربات التي تلقاها. وأوضح قائلاً:

- إنهم يقولون إنه سيجري محاكمتي بسبب جروح خفيفة... أما هم، فقد سددوا إلي دزينتين من الضربات.

وصمت، وبحث عن زاوية. وارتمى فيها. وصمت الآخرون هم أيضاً. وتناوبوا واحداً بعد آخر حيث كان يستجوبهم المفوض. كان يطلق سراح البعض، والآخرون يرسلون إلى الحبس، وآخرون يعودون وقد أدمتهم الضربات. وكانت العاصفة قد هدأت وكان النهار يشرق. وكان بيدرو آخر من استدعي للاستجواب. وترك السترة التي لف بها صورة «أوعون».

كان المفوض ضخماً بديناً يتلألأ في إصبعه خاتم مرصع بياقوتة حمراء، وكان يدخن السيغار. وحين دخل بيدرو مع الحارس، كان المفوض يطلب القهوة بصوت عال. ظل بيدرو واقفاً أمام المكتب، ساكناً بلا حراك. وقال الحارس:

ـ هذا هو الغلام السارق في كاموغراندي

أشار المفوض بيده

ـ سنرى إذا كانت هذه القهوة ستصل أو لا تصل

انسحب الحارس، وقرأ المفوض تقرير الحارس الذي اعتقل بيدرو بالا، ثم نظر إلى الغلام

ـ ماذا تريد أن تقول؟ ولن تكذب طبعاً.

روى بيدرو بصوت خائف قصة طويلة. قال إن والده صياد في ماركراندي، وإنه، في هذا اليوم بالذات، في الصباح، جاء مع الزورق، واصطحبه. ولكن اثر ذلك، عاد لكي يحضر حمولة ثانية. وتركه في المدينة ينتظره لأن الصياد سيعود مرة ثانية إلى باهيا في فترة بعد الظهر، وحينئذ يستطيع الغلام العودة مع والده. لكن العاصفة هبت، فحالت دون عودة أبيه، وهو، أي الغلام، الذي لم يكن يعرف أحداً، بقي تحت المطر، دون أن يعرف أين سينام. وسأل رجلاً في الشارع عن مكان النوم، فقال: «في مخفر الشرطة». وحينئذ طلب من الحارس أن يصطحبه إلى المخفر، لكن الحارس رفض ذلك. وهو، أي الغلام، تظاهر حينئذ بأنه يريد سرقة امرأة، لكي يقوده الحارس إلى مركز الشرطة، فينام تحت سقفه

ـ وهكذا فأنا لم أسرق، ولم أفعل... هذا ما قاله في ختام افادته

قال المفوض، لدى كل تذوق قهوة جرعات صغيرة، في نفسه

ـ مستحيل أن يختلق غلام في مثل سنه قصة كهذه... وأثر ذلك، ونظراً لأنه كان لدى المفوض ـ محامي ميول أدبية. فقد همس قائلاً: «هذه الحادثة ستكون قصة هائلة». وابتسم بشاشة، وسأل بيدرو

ـ ما اسم والدك؟

ـ أوغستو سانتوس، وقد صار اسم بحار معروف في ماركراندي

ـ إذا كان ما قلته لي صحيحاً، سأطلق سراحك. وإذا تبين أنك تريد خداعي بهذه القصة، فسوف ترى

ودق الجرس، مستدعياً الحارس. كانت أعصاب بيدرو متوترة جداً. ووصل الحارس، وسأله المفوض ما إذا كان لدى الشرطة سجل بأسماء صيادي ماركراندي، الذين يرسون على أرصفة السوق

ـ نعم يا سيدي، يوجد سجل

ذهب ونظر إذا كان بين أسماء الصيادين صياد اسمه اوغستو سانتوس. وعاد

وأبلغني الجواب. ولكن عجل لأن ساعة خروجي قد اقتربت

نظر بيدرو بالا إلى ساعة الجدار، كانت تشير إلى الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وغاب الحارس بضع دقائق، ولم يعد المفوض يهتم ببيدرو، الذي كان واقفاً أمام مكتبه. ثم عاد الحارس، وقال

ـ نعم يا سيدي، هناك صياد يحمل هذا الاسم. واليوم بالذات، كان على أرصفة الساحة، ثم عاد بعد قليل

أشار المفوض بيده وقال للحارس

ـ اطلق سراح هذا الأزعر

صب بيدرو الأدب بأخذ سترته، ووضعها تحت ذراعه، وما كان يظن أحد أنه يحمل تحت صدرته صورة «أوغون» وحيا الغلام و الحارس برواق مجدداً، وتركه الحارس على الباب. واجتاز بيدرو ساحة «المحرومين» ودار حول الثكنة المتقدمة، ووصل إلى غاموا دي سيا، والآن ينطلق راكضاً لكنه سمع خطى خلفه. كان يبدو أن هناك من يتبعه. ونظر، فإذا به «الاستاذ»، وجواو غراندي، و «القط» يركضون نحوه، وانتظر إلى أن وصلوا إليه، وسألهم وقد ألم به الفضول

ـ ماذا تصنعون في هذا المكان؟

حك «الاستاذ» رأسه

ـ ألا ترى أننا خرجنا، الآن، في ساعة مبكرة؟ كنا نروح ونجيء هنا، كما تريد دون فعل أي شيء، حتى رأيناك وأنت منطلق ركضاً

وفتح بيدرو سترته، وأظهر تمثال «أوغون». وأطلق جواو غراندي ضحكة سرور

ـ كيف فعلت للتغلب عليهم؟

نزلوا على الساحل مرتلين، بسبب الأمطار التي هطلت في الليل. وسار بيدرو بالا مع صحبه، وهو يروي لهم مغامرات الليلة. وسأل «القط»

ـ ألم تخف حتى قليلاً؟

أراد بيدرو في البدء أن يقول لا، لكنه اعترف قائلاً

ـ لكي أقول الحقيقة، لقد استولى علي خوف من المصيبة. والمصيبة هي السجن لكي تخلص منه. وضحك لملامح الوجه المرتعب، وجه جواو غراندي. كانت السماء الآن زرقاء، صافية، بلا سحب، والشمس تتلألأ وهناك، من الطبعة، كانوا يرون القوارب التي تخرج من رصيف «السوق»

حيث يبتسم الله مثل زنجي صغير

كان فصل ربيع آخر، كثيراً جداً ما كان يقال إن هذا ظهر لأحد أيام الشتاء، كانت الشمس تصب على الشوارع ضياءً لطيفاً، لم يكن يحرق، بل كان دفئه دافئاً مثل يد امرأة. وفي حديقة الأمير، كانت الأزهار تتفتح في باقات من الألوان أزهار اللؤلؤ، والورود والقرنفل والذهبيات والبنفسج. وفي الشارع كان يبدو أن ثمة عطراً لذيذاً رقيقاً إلى أقصى حد، لكن «سكر الشعير» كان يحس أن هذا العطر ينفذ إلى خياشيمه، ويسكره. وعند باب برتقاليين أعمياء، أكل بقايا غداء كانت ثمة مأدبة في حديقتها. إن الخادمة التي حضرت له الصحن المليء قد قالت وهي تنظر إلى الشوارع، وإلى الشمس المشعة، والرجال الذين يمرون بدون معاطف:

— يا له نهار جميل!

هذه الكلمات رافقت «سكر الشعير» في الشارع. كان النهار جميلاً، وكان الغلام يصفر لحناً غير مبال، صفيراً يلحن ما علمه إياه «حبيب الله الطيب»، متذكراً أن الأب جوزيه بيدرو قد وعد أن يفعل كل ما يستطيعه لإدخاله إلى دير للدراسة والعبادة. فقد قال له الأب جوزيه بيدرو أن كل هذا الجمال الباهظ، الشامل للأرض والناس، هو هبة من الله، وأنه يجب أن يحمد الله عليه. وراح «سكر الشعير» يتأمل السماء الزرقاء حيث لا بد أن يكون الله الطيب موجوداً ويشكره بابتسامة، كان يفكر في أن الله هو حقاً طيب. ولدى تفكيره في الله الطيب فكر أيضاً في «فرسان الرمل»، كانوا يسرقون ويقاتلون في الطرقات، ويلعنون، ويشتمون، ويهددون الزنجيات الصغيرات على الرمال، ويجرحون أحياناً بطعنات خنجر أو موسى رجالاً وشرطيين. ومع ذلك كانوا طيبين، وبعضهم أصدقاء بعض. وإذا كانوا يفعلون كل هذه الأشياء، فذلك لأنه ليس لهم أب ولا أم، ولأن حياتهم كانت حياة لا تضمن لهم الرغيف، وكانوا ينامون في مبنى لا سقف له تقريباً. ولو لم يكونوا يفعلون كل تلك الأشياء لماتوا جوعاً، لأنها كانت نادرة المنازل التي تعطي الطعام لواحد منهم، وللآخر تعطي الثياب. والمدينة بكاملها لن تكفي

لإعطائهم جميعاً الأكل والملبس. وفكر «سكر الشعير» بأنهم جميعاً محكوم عليهم بدخول الجحيم، وبيدرو بالا لم يكن يؤمن بوجود الجحيم، وكذلك «الأستاذ» لم يكن يؤمن بذلك. كان سحرة من «سكر الشعير» إنما جواو غرانديه، من جهته، فقد كان يؤمن بـ«كسانغو» و«أومولو». وثمة الزنوج الذين جاؤوا من أفريقيا. إن «حبيب الله الطيب»، لدى كل صياد شجاع، ورافضاً مصارعاً لا مثيل له، كان يؤمن هو أيضاً بآلهة الزنوج، وكان يخلط بينهم وبين القديسين البيض الذين جاؤوا من أوروبا. وكان الأب جوزيه بيدرو يقول إن هذه المعتقدات هي كلها أوهام وترهات، وإن هذا خطأ، ولكن ليسوا هم «فرسان الرمال»، مسؤولين عنه. وخرج «سكر الشعير» وسط جمال النهار: إذن، فكلهم محكوم عليهم بدخول الجحيم؟ كان الجحيم مكاناً مسيئاً للأبدية، حيث يحترق المحكومون طوال حياتهم، وهذه الحياة لا تنتهي أبداً. وفي الجحيم، يوجد شهداء مجهولون حتى من الشرطة، وحتى من الإصلاحية وقبل بضعة أيام، أثناء موعظة في كنيسة «لابيداد»، سمع «سكر الشعير» راهباً ألمانياً يصف الجحيم وعلى المقاعد، كان الرجال والنساء، يتلقون كلمات الراهب الإسبانية وكأنها ضربات سوط. كان الراهب أحمر اللون، والعرق يسيل من وجهه، وكان كلامه مرتبكاً. وعبر هذا الكلام، كان الجحيم يبدو أكثر رهبة أيضاً، وبنسبة تفوق مختلف الأجساد التي كانت جاثية على الأرض، وقد انصرفت عن الحب، والأيدي كانت رشيقة مدهشة، وقد قبضت بالسرقة، وباستعمال الخنجر والموسى. كان الله، عبر خطاب الراهب، هو الله المقاصص الذي يعاقب، وليس الله الطيب للسهرات الجميلة التي يصفها الأب جوزيه بيدرو. وإثر ذلك، أوضحوا لـ«سكر الشعير»، أن الله هو الطيبة القصوى، والعدالة القصوى. وعلق «سكر الشعير» حبه لله الطيب بعلاقة من الخوف إزاء الله. ومن الآن فصاعداً، سيعيش «سكر الشعير» مقسماً بين الشعورين كانت حياته حياة شقية لولد متشرد، تخلى عنه الأهل والناس، وعلى هذا الأساس، كانت حياته تحكم عليه بحياة خطيئة وسرقات شبه يومية، وأكاذيب على أبواب الناس الأغنياء، وهذا ...، في جمال هذا اليوم البديع، كان «سكر الشعير» يتأمل السماء بعينيه اللتين وسعهما الخوف، ورفع إلى الله الطيب الطيب جداً (لكنه عادل أيضاً) لغفران خطاياه، وخطايا «فرسان الرمال»، رفاقه، في البدء. لم تكن لغلطة غلطتهم، وكان الخطأ خطأ الحياة

كان الأب جوزيه بيدرو يقول إن الغلطة هي غلطة الحياة، ذلك لأنه كان يعلم أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليضمن لهم حياة مبرأة من الآفات والذنوب. ولكن، بعد

ظهر أحد الأيام، حيث كان الأب جوريه موجوداً هناك، وكذلك هامل المياه، جان دادام. أعتبر هذا أن الغلطة هي غلطة المجتمع السيء التنظيم، وغلطة الأغنياء. وأنه ما دام هذا لا يتغير، فإن الأولاد لن يتمكنوا من أن يصبحوا رجال خير. وأضاف أن الأب جوريه بيدرو لن يتمكن أبداً من فعل أي شيء لأجل الأولاد، لأن الأغنياء سيمنعونه من ذلك. في ذلك اليوم، أحس الأب جوريه بيدرو بأسى كبير، وحين حاول «سكر الشعير» تعزيته موضحاً له أنه لا ينبغي إعارة أي انتباه لآراء جان دادام، أجاب الأب وهو يهز رأسه الحزين:

- هناك أحيان أتوصل فيها للتفكير بأنه على حق، وأن كل شيء يجري بالمقلوب. لكن الله طيب، وهو سيتمكن من المداواة.

كان الأب جوريه بيدرو يعتقد أن الله سيغفر. وكان الأب يريد مساعدة الأولاد. ولما لم يكن يجد، إن لم يكن الوسائل للتوصل إلى ذلك، فعلى الأقل، مع الأسف، جداراً أمامه (كان جميع الناس يريدون معاملة «فرسان الرمال» إما كمجرمين، وإما كأولاد يشبهون الأولاد الذين ربوا داخل بيت، وعائلة) كان الأب جوريه بيدرو يحس بما يشبه اليأس، بل وأحياناً يكون فاقداً الاتجاه، ضائعاً. لكنه كان يأمل في أن الله سيلهمه في يوم من الأيام. وبانتظار ذلك، لم يكن يغيب عن الأولاد، مع نجاحه أحياناً في إبعادهم عن أعمال شريرة. من كان أحد أولئك الذين أسهموا في قطع دابر اللواط في الجماعة. وقد شكل هذا إحدى التجارب الكبرى في كيفية معاملة «فرسان الرمال». وطوال ما كان الأب جوريه بيدرو يردد أنه من الضروري التخلص من اللواط، لأنه خطيئة، ولأنه شيء قذر وبشع، كان الأولاد يسخرون منه خفية، واستمروا في مضاجعة الأولاد الأفتى سناً والأجمل. ولكن، حين قال لهم الأب، يساعده هذه المرة «حبيب المطلب»، أن اللواط عمل غير جدير بالرجل، وأنه يجعل الرجل شبيهاً بالمرأة، بل وأسوأ من المرأة، اتخذ بيدرو بالا تدابير قاسية، وطرد مخنثي اللواط السلبيين من الجماعة. وبالرغم من جهود الأب جوريه بيدرو، لم يقبل بيدرو بالا بعودتهم أبداً.

- إذا عادوا، فستنكرر القذارة، يا أبت.

وقد انتزع بيدرو بالا اللواط من بيئة «فرسان الرمال» كما ينتزع الجراح زائدة دودية ملتهبة من جسم رجل. وكان الأصعب، بالنسبة للأب جوريه بيدرو، التوفيق بين الأشياء. لكنه كان يتحسس طريقه. ويبتسم أحياناً بارتياح للنتائج. وإن كان جان دادام، رغم كل شيء، يضحك منه. وينادي بأن الثورة وحدها هي التي ستسوي كل هذه الأمور كما ينبغي. وهناك في الأعلى، في المدينة العليا، كان الرجال الأغنياء

والنساء يطالبون بشدة بأن يسجن «فرسان الرمال»، أو أن يجري إدخالهم إلى الإصلاحية، التي هي أسوأ من السجن. وهناك، تحت، على أرصفة المياه، كان جان دادام يريد التخلص من الأغنياء، وتحقيق المساواة في كل شيء، وإعطاء مدارس للأولاد الصغار. وكان الأب، من جهته، يريد إعطاءهم المنزل والمدرسة، والحنان، والرفاهية، بدون الثورة، وبدون التخلص من الأغنياء. ولكن في كل ناحية، كان يقوم حاجز. كان الأب يحس بأنه ضائع، وكان يطلب إلى الله أن يلهمه. وبشيء من الرعب، حين كان يفكر في هذه المسألة، كان يعطي الحق، حتى دون أن يدري، لعامل الميناء جان دادام. وحينئذ كان يلوم نفسه، أي الخوري جوريه بيدرو، الخوف، لأن ذلك لم يكن دروس أساتذته، وكان يصلي طوال ساعات لكي ينير الله طريقه.

بين «فرسان الرمال»، كان «سكر الشعير» المكسب الكبير للأب جوريه بيدرو. وقد كانت له سمعة بصفته أكثر أعضاء الجماعة شراً، وكان يروى أنه في أحد الأيام غرس خنجره في عنق غلام لم يرد أن يقرضه نقوداً، وكان يريد غرس خنجره ببطء، دون أن يرتجف، حتى سال الدم، وأعطاه الولد نحو كل ما عنده. ولكن يروى أيضاً أنه غرس موسه أيضاً في جسم «شيكو - الشحم»، حين كان هذا الخلاسي يعذب هرّاً جارفاً بالدخول إلى مستودع مطارداً الجرذان. ويوم راح الأب جوريه بيدرو يتكلم عن الله، والسماء، والمسيح وعن الطيبة والتقى، أخذ «سكر الشعير» يتغير. كان لله ينادي، وكان يسمع صوته القوي عبر المستودع. وكان يرى الله في أحلامه ويسمع نداءه. هذا الذي كان يتكلم عنه الأب جوريه بيدرو. واتجه بكل كيانه نحو الله. وكان يصلي أمام الصور التي أعطاه إياها الخوري. وفي اليوم الأول، قوس بصفير السخرية في المستودع. فضرب ولداً من الأصغر سناً، وصمت الناقوس. وفي اليوم التالي، قال له الأب إنه، أي «سكر الشعير»، قد أساء العمل، وأنه كان عليه أن يتألم من أجل الله. وحينئذ أعطى «سكر الشعير» موسه الحديدة تقريباً إلى الصبي الذي ضربه. وأبداً بعد ذلك لم يضرب أي غلام آخر. وكان يتجنب المجادلات والخلافات، وإذا كان لم يتجنب السرقات، فذلك لأنها كانت وسيلتهم للعيش، بل وسيلتهم الوحيدة. كان «سكر الشعير» يحس بشدة بدعوة الله، وكان يريد أن يتألم من أجل الله. وساعات وساعات، كان يركع في المستودع راقداً على الأرض، وكان يصلي حتى وهو متهالك نعساً. ويهرب من الزنجيات الصغيرات اللواتي كن يعرضن عليه مجامعتهن على رمال ساحل الساحة ليلاً. حينئذ كان يحل الله الطيبة النقية. ويعدم أمله لقاء الآلام التي عانها الله على الأرض إثر ذلك، جاء ذلك لكشف عن الله مقاصي، يحقق العدالة،

(بالنسبة «لسكر الشعير»، أصبح هذا الإله المنتقم) واجتاح خوف الله قلبه، واختلط مع حب الله. وأصبحت صلواته أقل طولاً، فكان هول الجحيم يختلط بنعيم الله والمتع التي يعطيها. كان يصوم أياماً بكاملها. وأصبح وجهه نحيلاً مثل وجه زاهد متنسك كانت له عينا صوفي، وكان يعتقد أنه يرى الله عبر ليالي الرقاد. ولذلك كان يبعد نظراته عن أرداف ونهود الراعيات الصغيرات اللواتي كن يسرن كأنهن يرقصن، على أنظار الجميع، في أزقة مدينة المقبرة. وكان يأمل في أن يصبح يوماً كاهناً لإلهه، وأن يعيش فقط ليتأمل فيه، وأن لا يعيش إلا من أجله. وكان حب الله يمنحه الأمل في الصفح، وأن الخوف من الله المنتقم من خطايا «سكر الشعير» كان يجعله يائساً من الخلاص.

وهذا الحب، وهذا الخوف، هما اللذان كانا يجعلان «سكر الشعير» يتردد أمام هذه الواجهة الزجاجية، في ساعة الظهر هذه، الملأى بأحبال الشمس اللطيفة والنيرة، والأزهار تتفتح في الحديقة، وفي كل مكان يسود الهدوء والسلام. ولكن كانت أجمل بين جميع الأشياء هذه الصورة للحبل الإلهي، مع الطفل يسوع، التي كانت على رف هذا الحانوت، ذي الباب الواحد. وفي الواجهة الزجاجية، صور قديسين، وكتب صلاة ثمينة التجليد، ومسابح ذهبية، وذخيرات فضية. لكن في الداخل، في آخر الرف الذي يصل إلى الباب، كانت عذراء الحبل تمد الطفل يسوع نحو «سكر الشعير»، واعتقد «سكر الشعير» أن العذراء تريد أن تعهد إليه بالله الطيب، الله الطفل الصغير والعاري تماماً، الفقير مثل «سكر الشعير». لقد صنع النحات الولد نحيلاً، والعذراء حزينة جداً لهزال صغيرها عارضة إياه أمام الأشخاص الطيبين والأغنياء. لذلك كان التمثال يبقى في الحانوت، ولا يباع. إن الطفل يسوع في الصور والتماثيل المعروفة هو دائماً طفل جميل سمين بهيئة ولد غني. أما هذا فهو ولد فقير، ولد فقير، مشابه تماماً لـ«سكر الشعير»، ومشابه أكثر أيضاً للأولاد الأصغر في جماعته، ومماثل بالضبط لولد في المهد، البالغ بضعة أشهر فقط من العمر، الذي ترك يوماً في الشارع، حيث ماتت أمه من نوبة قلبية، وهي تحمله بين ذراعيها، والذي أحضره جواو غراندي إلى مستودع، حيث بقي حتى نهاية فترة بعد الظهر (وكان الأولاد يأتون وينظرون ويضحكون من «الأستاذ» ومن الرضيع، المنهمكين في تأمين الحليب والماء للطفل الرضيع). حتى جاءت الماي-دي سانتو آنيها، وأخذته معها، مرقدة إياه على صدرها. مع فارق وحيد، هو أن هذا الطفل هو زنجي، في حين أن الطفل يسوع هو أبيض. وبالإجمال، فإن التشابه كامل، إن له وجهاً باكياً، هذا الطفل يسوع الهزيل والفقير، بين ذراعي العذراء. وهذه تهديه

إلى «سكر الشعير»، والمداعبات «لسكر الشعير»، والحب «لسكر الشعير». وهناك في الخارج، النهار جميل، والشمس رحيمة، والأزهار متفتحة. ووحده، في هذا النهار، الطفل يسوع جائع وبردان. إن «سكر الشعير» سيأخذه إلى مستودع «فرسان الرمال»، وسيصلي لأجله، وسيعتني به، وسيغذيه. ألا يظهر للنظر تماماً أنه بعكس جميع التماثيل والصور، ليس الطفل يسوع محبوساً بين ذراعي العذراء، وأنه حر بين يديها، وأنها تقدمه مجاناً «لسكر الشعير». وخطا خطوة إلى الأمام. وفي داخل الحانوت، كانت آنسة وحيدة تنتظر الزبائن، وهي تجرب على شفتيها ماركة جديدة من أحمر الشفاه. وليس ما هو أبسط من أخذ الطفل يسوع. ومد «سكر الشعير» قدمه ليخطو خطوة أخرى، لكن خوفاً شل حركته. وظل ساكناً بلا حراك. يفكر. وهو في خوفه، أفهم بأنه لن يسرق إلا لكي يأكل، أو حين تقضي بذلك قوانين الجماعة، أي القيام بعملية سطو يعينه للقيام بها بدرو بالا. ذلك لأنه كان يقدر أن خيانة القوانين (إنها لم تكتب، لكنها كانت منحوتة في ضمير كل ولد من أعضاء الجماعة) إن خيانة قوانين «فرسان الرمال» كانت أيضاً خطيئة. وهو الآن سيسرق الطفل يسوع، لا لشيء إلا ليكون معه. وبالنسبة إليه، كانت هذه خطيئته، لأنه لا يفعل ذلك لكي يأكل، أو لكي يطيع قوانين «فرسان الرمال». كانت هذه خطيئة، إنه يسرق ليس من أجل أن يأكل، ولا لكي ينفذ. إن الله عادل، وسيعاقبه، وسوف يسلمه لنيران الجحيم. وسوف يحترق جسمه، ويداه اللتان ستأخذان الطفل يسوع، ستحترقان طوال حياة لن تنتهي أبداً. لقد كان الطفل يسوع ملكاً لصاحب الحانوت. لكن هذا لديه أطفال-يسوع كثيرون، وجميعهم بدناء ومتوردون، كثيرون بحيث أنه لن يشعر بالنقص بفقدان واحد، نحيل وضعيف البنية جداً. والآخرون كانوا ملفوفين في أقمشة ثمينة، ذات أقمشة زرقاء سماوية لكن من النسيج العالي الثمن. أما هذا الطفل يسوع، فكان عارياً كلياً، وكان يحس بالبرد في بطنه. كان ناحلاً هزيلاً، وحتى من النحات لم يحصل على أي حنان. وكانت العذراء تقدمه لـ«سكر الشعير». وكان الطفل حراً بين ذراعيها. إن لدى صاحب الحانوت كثيراً من الأطفال-يسوع. كثيراً. فكيف سيشعر بالنقص إذا فقد هذا الطفل يسوع، الهزيل والعاري؟ ولعل صاحب الحانوت لن يعلق عليه أهمية، بل ربما سيصبح حتى سعيداً بسرقة هذا الطفل يسوع الذي لم يتوصل أبداً لبيعه، والذي كان حزيناً بين ذراعي العذراء، والذي بأنه كانت لبشاعة التقيات اللواتي يأتين للشراء بصحن مرتفعات

- كلا. ليس هذا. لا، إنه قبيح جداً. سيغفر لي الله. وهو، فوق ذلك،

مصلوب على ذراعي سيدتنا العذراء. إنه سوف يسقط على الأرض، وينتهي الأمر.
لا، ليس هذا.

وبقي الطفل يسوع هنا. كانت العذراء تقدمه لجان مارة، ولكن لم يكن أحد يريده. لم تكن أسماء النقابات يرددنه لأجل زاوية مصلاهن في منازلهن، حيث يوجد أطفال يسوع آخرون، يلبسون صنادل فضية، ومتوجون بتاج ذهبي، ورأى «سكر الشعير» فقط أن الصغير يسوع جائع وظمآن، وبردان أيضاً، وكان يريد أخذه. لكن «سكر الشعير» لم يكن لديه نقود، كما لم تكن لديه العادة لشراء الأشياء. كان يستطيع أخذه، لكن يستطيع أن يعطي الطفل يسوع ما يأكله، وما يشربه، وما يرتديه، كل هذا سيمده من جهته. ولكن إن فعل ذلك، أي إن سرق الطفل يسوع، فسوف يعاقبه الله، وسوف تلتهم نار جهنم كل حياة «سكر الشعير» التي لا تنتهي، وبيديه اللتين ستأخذان الطفل يسوع ورأسه الذي يفكر في أخذه. وحينئذ تذكر «سكر الشعير» أن النية وحدها تشكل خطيئة، وأن الشخص يخطىء فقط حين يفكر في فعل الخطيئة. لقد قال الأخ الألماني أن الشخص يكون في كثير من الأحيان آخذاً بارتكاب الخطيئة، وهو لا يعرف ذلك، لأنه يخطىء بالفكر. فخاف «سكر الشعير» من الله، وانطلق راكضاً بسرعة، لكي لا يستمر في ارتكاب الخطيئة. لكنه لم يركض زمناً طويلاً، بل وقف عند زاوية الطريق، ولم يستطع أن يبتعد كثيراً عن التمثال. ونظر إلى الواجهات الزجاجية الأخرى، وعلى هذا النحو لم يكن يرتكب الخطيئة. ودس يديه في جيبيه، (كان يمسك بهما) وحول سير أفكاره. ولكن الآن كان يمر أمامه الرجال العائدين إلى عملهم بعد الغداء، وساورته فكرة: بعد لحظات، سيعود مستخدمو الحانوت الآخرون، وحينئذ سيكون من المستحيل أخذ الطفل يسوع. سيكون ذلك مستحيلاً. وعاد «سكر الشعير» إلى أمام محل الأشياء الدينية.

هنا كان الطفل يسوع، والعذراء التي تقدمه إلى «سكر الشعير». ودقت ساعة جدارية الساعة الواحدة بعد الظهر. لن يلبث أن يحضر المستخدمون الآخرون في الحانوت. وكم سيكونون؟ حتى ولو لم يكن هناك سوى مستخدم واحد، فإن الحانوت صغير، بحيث يصبح مستحيلاً أخذ الطفل يسوع. وبدا له أن العذراء هي التي تهمس له بهذا. والعذراء هي التي تقول له إنه إذا لم يأخذ الطفل - يسوع فوراً، فهو لن يستطيع أخذه بعد ذلك. كأنها تماماً تقول هذا. وبالتأكيد أنها هي، أجل، هي التي جعلت الآنسة تختفي وراء الستار الموجود في عمق المخزن، الذي تخلت الآن عن حراسته. نعم، إنها العذراء التي تمد الآن الطفل يسوع نحو «سكر الشعير» وبمقدار ما

يسمح لها ذراعاها، تدعوه بصوتها اللطيف:
ـ «خذه واعتن به جيداً. اعتن به جيداً.»

تقدم «سكر الشعير» ورأى الجحيم وعقاب الله، ويداه ورأسه التي تحترق طوال حياة لا تنتهي، لكنه هز نفسه كأنه يلقي عنه بعيداً تلك الرؤى، وتلقى الطفل يسوع الذي كانت تقدمه له العذراء وأسنده إلى صدره، واختفى في الشارع.

لم يكن ينظر إلى الطفل يسوع لكنه كان حذراً. الآن، أن الطفل يسوع، المسنود إلى صدره، يبتسم، وهو لم يعد جائعاً، ولا ظمآن، ولا يحس بالبرد. إن الطفل يسوع يبتسم كما كان يبتسم الراعي الصغير حين صار في المستودع، وكان يرى أن جو وعرائدي كان يعطيه الحليب بالملعقة، بيديه الهائلتي الكبر، في حين كان «الأستاذ» يشده على دفء صدره.

* * *

العائلة

وهكذا ابتسم الطفل يسوع

إن « الشارب اللطيف » هو الذي حكى لبيدرو بالا أن في ذلك المنزل بحي « لاغو سا » يوجد ذهب بمقدار يفقدك العقل. إن صاحب المنزل، كما يبدو، هو جامع تحف، وقد علم « الشارب اللطيف » من أحد اللصوص أنه يوجد في ذلك المنزل غرفة محشوة بالتحف الذهبية والفضية، التي يمكن أن يعود بيعها بثروة كبيرة. وفي فترة قبل الظهر، ذهب بيدرو بالا لمشاهدة المنزل، مع « الشارب اللطيف ». وكان عبارة عن عمارة عصرية واسعة، تربض أمامها حديقة، ومرآب في العمق. وهي مسكن فسيح لأشخاص أغنياء. وبصق « الشارب اللطيف » من بين أسنانه، ورسم ببصقته زهرة على الرصيف، ثم قال:

والقول إنه في هذا القصر يسكن عجوزان فقط!

وعلق بيدرو بالا قائلاً:

- كوخ جميل جداً

وفتحت الخادمة الباب الأمامي، وخرجت إلى الحديقة. وفي البهو الذي ظهر للأنظار، شاهدوا لوحات معلقة على الجدران، وعلى الطاولات كانت تماثيل صغيرة، واستغرق بيدرو بالا بالضحك:

- لو أن « الأستاذ » رأى هذا، لأصيب بالجنون. إذ لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثل هذا المقدار من الكتب واللوحات

- سوف يرسم لوحة وجهية لي، بهذا الكبر. وأشار « الشارب اللطيف » إلى « هذا الكبر » بإبعاده يديه إحداهما عن الأخرى.

ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى المنزل، واقترب قليلاً من الحديقة وهو يصفر. كانت الخادمة تقطف الأزهار، وكان نهداها الفتيان يظهران تحت الثوب المكشوف الرقبة والكتفين (الديكولتيه) لأنها كانت منحنية. كانا نهدين أبيضين، ينتهيان بحلمتين قرمزيتين. نهد « الشارب اللطيف » إلى جانبه

- يا له من حسن يا بالا

- سيد بيرث

لكن الخادمة كانت قد رأتهما، وأخذت تنظر إليهما وكأنها تسألهما ماذا يريدان. جمع بيدرو بالا كاسكيته وسأل:

- هل يمكنك أن تعطينا قدح ماء إن سمحت؟ إن الشمس قوية والحرارة [illegible] وبسم، ماسحاً بكاسكيته جبهته التي كان يسيل عليها العرق. كان شديد الاحمرار تحت الشمس، وشعره الأشقر والطويل يسترسل على أذنيه بتموجات غير منسقة، وقد نظرت إليه الخادمة بعطف. وإلى جانبه، كان « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارة، ورجله على حجر الحديقة الصغير. ولاحظت الخادمة أولاً « الشارب اللطيف » بازدراء:

- أبعد قدمك عن الحجر يا هذا!

ثم ابتسمت لبيدرو بالا:

- سأحضر الماء فوراً

وعادت مع كوب ماء، وكان كوباً لم يسبق أن رأى مثله، لشدة جماله. وشربا الماء، وشكرها بيدرو بالا:

- شكراً جزيلاً

ثم قال بصوت منخفض للخادمة:

حبيبتي الخادمة، هي أيضاً، بصوت منخفض: ذلك صغير جسور

- في أية ساعة تخرجين من هنا؟

- إن لك من شخص! إن عندي رجلي. وهو سينتظرني في الساعة التاسعة مساءً، عند هذه الزاوية من الشارع

- حسناً، هذا المساء، سأكون عند الزاوية الأخرى.

وذهب عبر الشارع، و « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارته وهو يهوي وجهه بقبعة مستديرة، لم يكن يحملها، وعلق بيدرو بالا:

- إنني محظوظ جداً. وهذه مرأة مضمونة تماماً

بصق « الشارب اللطيف »، محدداً من بين أسنانه

- أيضاً مع هذا الشعر السوي المستعار المليء بالخصلات المجعدة ..

رفع بيدرو بالا قبضته في وجه « الشارب اللطيف »

- دعني من حسدك، أيها الخلاسي المرعج

وعبر « الشارب اللطيف » الحديث

ـ ماذا عن قطع السلك ؟

ـ هذا أولا عمل لأجل « ذي الرجل الرخوة » . غداً سيجد وسيلة للدخول إلى هذا المنزل ، لقضاء بضعة أيام فيه . وبعدئذ ، سوف نعرف أين توجد أفضل القطع ، ونأتي خمسة أو ستة ، ونأخذ البضاعة .

ـ وستفقد خريدتك ؟

ـ الخادمة الصغيرة ؟ سوف أنالها هذه الليلة بالذات ، وحين تدق الساعة التاسعة ، سأكون هناك .

والتفت ونظر إلى المنزل . كانت الخادمة متكئة على الحاجز الحديدي . وحياها بيدرو بالا مودعاً ، وردت التحية . وبصق « الشارب اللطيف » .

ـ للشيطان أي حظ يبدل ... لم أر في حياتي مثل هذا الحظ .

في اليوم التالي ، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر ، ظهر « ذو الرجل الرخوة » أمام المنزل . وحين دق الجرس ، كانت الخادمة ما تزال تفكر في الليلة التي قضتها مع بيدرو بالا ، في غرفتها على « عارسيا » ، إذ أنها لم تسمع رنين الجرس . ودق الغلام الجرس ثانية . فظهر من نافذة غرفة في الطبقة الأولى من المنزل ، رأس وخطه الشيب لسيدة راحت تنظر إلى « ذي الرجل الرخوة » ، وعيناها تطرفان .

ـ ماذا تريد ، يا بني ؟

ـ يا سيدتي ، بني ولد يتيم .

أشارت له المرأة بأن ينتظر ، وبعد بضع دقائق ، كانت عند الباب دون أن تسمع كلام الخادمة التي كانت تعتذر ، لأنها لم تسمع رنين الجرس .

وقالت السيدة :

ـ تستطيع أن تتكلم ، يا ولدي .

كانت تتأمل أسمال « ذي الرجل الرخوة » .

ـ يا سيدتي لم يعد لي أب ، ومنذ أيام توفيت أمي إلى رحمة الله .

وأبدى شريطة سوداء على ساعده . وهي ساعدة صنعت من شريطة قبعة « القط » الحديدة ـ الذي أصابه حينئذ غضب شديد .

وعاد « ذو الرجل الرخوة » يقول للسيدة :

ـ ليس لي أحد في العالم ، أنا معاق ، ولا أستطيع العمل كثيراً . ومنذ يومين لم أذق

الطعام ، وليس لدي مكان أنام فيه .

كان يبدو وكأنه على وشك البكاء . وكانت السيدة تنظر إليه ، متأثرة جداً .

ـ هل أنت معاق ، يا بني ؟

أظهر « ذو الرجل الرخوة » ساقه العرجاء ، وسار أمام السيدة مبالغاً في عرجه وحدقت فيه بعطف .

ـ بأي شيء ماتت أمك ؟

ـ الحقيقة لست أدري . لقد أصيبت المسكينة بمرض لا أعرف اسمه ، حمى سيئة . فلاقت وجه ربها بعد خمسة أيام . وخلفتني وحيداً في العالم . لو على الأقل كنت أستطيع العمل ... كنت سأتدبر ، كنت أستطيع أن أتدبر أمري . ولكن مع هذا العرج ، لا حيلة لي إلا في منزل عائلة . ألا تحتاجون إلى ولد صغير ليقوم بالمشتريات ، ويساعد في العمل في المنزل ؟ إذا كنتم بحاجة إليّ يا سيدتي ...

وإذ أن « ذا الرجل الرخوة » اعتبر أنها ما زالت مترددة ، أكمل كلامه بوقاحة ، وبصوت باك :

ـ لو شئت أردت لانضممت إلى هؤلاء الغلمان اللصوص ، إلى « فرسان الرمال » . لكني أنا ، لا أكل من هذا الخبز ، إني أريد أن أعمل . ولكن هناك أني لا أستطيع أن أحمل عملاً كبيراً . أنا يتيم مسكين ، أنا جائع .

لكن المرأة لم تكن أبداً مترددة . وكانت تتذكر ولدها الذي مات وهو في سن هذا الغلام . والذي فقد بموته كل بهجة عيش مع زوجها ، وهذا ، على الأقل ، كانت لديه مجموعاته من الأعمال الفنية . لكنها ، من جهتها لم تكن تملك سوى ذكرى هذا الابن الذي غادرها في وقت مبكر جداً . لذلك كانت تنظر بحنان كبير إلى « ذي الرجل الرخوة » المرتدي الأسمال البالية . وتكلمه بصوت ليس لطعمه هو لطف الأيام العادية لكن هناك بعض البهجة في نصف صوتها ، وقد ذهلت لذلك الخادمة .

ـ ادخل يا ولدي . لا تقلق . سوف أجد لك عملاً .

ووضعت يداً دقيقة وأرستقراطية ، يتلألأ فيها خاتم ذو ماسة على رأس « ذي الرجل الرخوة » القذر ، وقالت للخادمة :

ـ ماري ـ جوزيه ، أعدي الغرفة القائمة فوق مرآب هذا الولد . ودليه على قاعة الحمام وأعطيه منشفة وصابون وأثر ذلك . أعدي له الطعام .

ـ هل قبل أن أعد الغداء ، يا دونا استر ؟

ـ نعم ، فمنذ يومين لم يأكل ، هذا المسكين الصغير .

لم ينبس «ذو الرجل الرخوة» بكلمة. وكان يقوم فقط بمسح دموعه المتقطعة بظاهر يده.

فاتت السيدة لاتنك، وأخذت تمسح على وجه الولد.

- إنك صبية جداً. فليكافئك الله على هذا.

وتراجعت، سائلة عن اسمه، فأعطى أول اسم خطر بباله:

- أوغست.

ونظراً لأنه راح يردد الاسم، لذاته، لكي لا ينسى أنه يدعى «أوغست» ولم ير بادىء بدء انفعال السيدة التي همست قائلة:

- أوغست، إنه نفس الاسم.

وأضافت بصوت عال، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان الآن ينظر إلى وجهها بفعل:

- ابني كان أيضاً يدعى أوغست. لقد مات وهو في نفس سنك. ولكن تعال يا ولدي. اذهب واغتسل، لكي تأكل.

سمعته الدونا استير، متأثرة ورأت أن الخادمة كانت تشير لـ «ذي الرجل الرخوة» إلى مكان الحمام، وتعطيه مئزر حمام، وتتجه نحو الغرفة القائمة فوق المرآب، لكي ترتبها (كان السائق قد أخذ عطلته، وكانت الغرفة خالية). اقتربت الدونا استير وقالت لـ «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان قد توقف عند باب الحمام:

- ستستطيع أن تلقي عنك هذه الملابس، وستعطيك ماريا ـ جوزيه ملابس أخرى.

رجع «ذو الرجل الرخوة» ينظر، الآن، إلى السيدة التي كانت تبتعد. وكان غاضباً، لكنه لم يكن يعرف إذا كان غاضباً ضدها أو ضد نفسه.

جلست دونا استير أمام منضدة زينتها، ولبثت ثابتة العينين. والذي يراها يعتقد أنها تنظر إلى لا شيء، عبر النافذة. لكنها في الحقيقة، لم تكن تنظر إلى شيء، ولم تكن ترى شيئاً. كانت تنظر، نعم، ولكن إلى داخل ذاتها، نحو ذكرى سنوات عديدة، وكانت ترى غلاماً صغيراً في مثل سن «ذي الرجل الرخوة»، وهو، أي ولدها، كان لابساً ثياب بحار، ويركض عبر حديقة المنزل، الذي تركوه بعد موته. كان ولداً مليئاً بالحياة والبهجة، وكان يحب أن يضحك ويقفز. وحين كان يتعب من الركض مع الهر، ومن الصعود إلى أرجوحة الحديقة، ومن رمي الكرة المطاطية، في الدغل، حيث يكون على الكلب الذئب (شين ـ لو) أن يلتقطها، كان يأتي ويحيط بساعده عنق الدونا استير،

ويضمها على وجهها، ويبقى معها، ناظراً إلى الكتب المصورة، محاولاً قراءة الحروف ورسمها. ولكي تمضي معها أطول فترة ممكنة، قررت دونا استير وزوجها أن يعلماه بواسطة معلمة في المنزل بالذات. وفي أحد الأيام (هنا اغرورقت عينا الدونا استير بالدموع) أصيب الولد بالحمى. واشتد ذلك، احتار الطبيب لصغر السن، وكانت الأم تنظر إليه مذهولة العينين، ولم تكن تستطيع أن تفهم أن ولدها قد مات. كانت صورته ـ في إطار كبير ـ في غرفتها، ولكن كان يحجبها ستار دائم، لأنها لم ترد رؤية صورة ولدها مجدداً، لكي لا تجدد عذابها. وحتى الملابس التي كان يرتديها قد جمعت في حقيبة صغيرة، ولم يمسها أحد أبداً بعد ذلك. لكن الآن كانت دونا استير تسحب مفاتيح علبة حلاها.

وببطء، ببطء شديد، اتجهت نحو المكان الذي توجد فيه الحقيبة. وقربت كرسياً جلست عليه. وفتحت الحقيبة بيدين مرتجفتين، وأخذت تتأمل السراويل والكنزات، والبزة البحرية، والبيجامات، والقمصان الملونة التي كان ينام بها. وشدت البزة البحرية على صدرها كما لو كانت تعانق ولدها. وانحدرت دموعها.

والآن، جاء غلام صغير فقير ويتيم، يدق بابها. وبعد موت ولدها، لم ترد أولاداً آخرين، بل لم تكن تحب رؤية أولاد الآخرين، ولا أن تلاعبهم لكي لا تؤجج الألم الذي تراود ذكراها. ولكن ها هو أحد هؤلاء الأولاد، فقير ويتيم، معاق وحزين. ويقول أنه يسمى «أوغست» مثل ولدها. قد جاء يدق بابها، طالباً الخبز والمأوى وقليلاً من الحنان. لهذا أصبحت لديها الشجاعة لفتح هذه الحقيبة ولأن تخرج منها زي البحار هذا الأزرق. هذه البذلة التي كان يحبها من بين جميع الملابس الأخرى. ذلك لأنه، بالنسبة للدونا استير، قد عاد ابنها اليوم في صورة هذا الولد المعاق واللابس الأسمال، وهو بدون أم ولا أب. لقد عاد ولدها، ودموعها ليست دموع ألم فقط. لقد عاد إليها، شاحباً هزيلاً وجائعاً مع ساق معطوبة، ومرتدياً الأسمال البالية. ولكن عما قريب سيصبح من جديد أوغست السعيد والمرح، أوغست الأعوام المنصرمة، ومن جديد سيأتي ليحيط بساعده عنقها، وليقرأ حروف الأبجدية الكبيرة.

نهضت الدونا استير وحملت البزة البحرية الزرقاء. وتناول «ذو الرجل الرخوة» أفضل وجبة في حياته، مرتدياً هذه البزة.

فلو أن بذلة البحار قد صنعت لأجله، لما كانت أفضل مما هي عليه الآن. فقد بدت تماماً «ذا الرجل الرخوة»، وحين نظر إلى نفسه في المرآة، تعرف إلى ذاته بصعوبة. لقد استحم. وقد وضعت الخادمة البريانتين على شعره، وعطراً على وجهه

وهذه البذلة السحرية كانت رائعة. وراح «ذو الرجل الرخوة» يتأمل نفسه في المرآة وأمر يده على رأسه، ثم على صدره، ممسداً ثيابه. وابتسم وهو يفكر في «القط» وكان يمكن أن يدفع غالياً لكي يراه «القط» في مثل هذه الأناقة. وكان لديه أيضاً حذاء جديد، ولكن الحقيقة هي أن الحذاء كان يثير قرفه بعض الشيء، لأن له عقدة شريط، ويشبه قليلاً حذاء امرأة. وكان «ذو الرجل الرخوة» يجد أن من الغريب أن يلبس بنطلون بحار، مع حذاء نسائي. واتجه نحو الحديقة ذلك لأنه كان يريد التدخين، فهو لم يمتنع أبداً عن التدخين بعد الغداء. وأحياناً لم يكن هناك غداء، ولكن دائماً كان هناك عقب سيجارة ما. وهنا، كان يجب الانتباه، إنه لا يستطيع أن يدخن على المكشوف. ولو أنهم تركوه في المطبخ، مختلطاً بالخدم، كما كانت الحال في المنازل الأخرى، إذن حيث تم إدخاله لكي يسرق إثر ذلك، لكان في استطاعته التدخين، وأن يعبر عن نفسه بلغة «فرسان الرمال» المختصرة. لكن هذه المرة، جرى تحميمه، وألبس ثياباً جديدة، ووضع بريانتين على شعره وعطر على وجهه. وإثر ذلك، جرى إطعامه في غرفة الطعام وأثناء تناول الوجبة، كانت السيدة تحادثه كما لو كان غلاماً صغيراً حسن التربية. والآن، أرسلته ليلعب في الحديقة، حيث كان الهر الأصفر المسمى «بيرلوك»[22] يستدفئ في الشمس. واقترب «ذو الرجل الرخوة» من أحد المقاعد، وأخرج من جيبه علبة سجائر رخيصة الثمن. فهو، لدى تغييره ملابسه، لم ينس علبة الدخان. وأشعل سيجارة وبدأ يتذوق دفقات الدخان في الوقت نفسه مع تفكيره في حياته الجديدة. لقد سبق أن قام بهذا مراراً عديدة: أن يدخل إلى منزل عائلة جيدة كولد فقير، يتيم، ومعوق، وعلى هذا الأساس، كان يبقى في ذلك المنزل الوقت الضروري لكي يستكشف المنزل بصورة كاملة، والمواضع التي تخبأ فيها الأشياء الثمينة، والمخارج الملائمة للهرب. وإثر ذلك، كان «فرسان الرمال» يجتاحون المنزل، خلال إحدى الليالي، ويحملون الأشياء القيمة. وفي المستودع كان «ذو الرجل الرخوة» يبتهج. وقد استولى عليه فرح هائل، فرح بأنه قد انتقم، لأنهم في هذه المنازل، إن كانوا يستقبلونه، وإذا كانوا يعطونه خبزاً ومأوى، فمثلما لو أنهم يقومون بواجب مضجر، كان أصحاب المنزل يتلافون الاقتراب منه، ويتركونه في القذارة، وهم لم يصدر منهم أبداً أي كلام طيب. وكانوا ينظرون إليه كأنما يسألونه

(٢٢) «بيرلوك» أي الخاطف

ـ ملاحظة من المترجم ـ

متى سيرحل. وإذا لم يكن يتأخر على الرحيل، وفي كثير من الأحيان كانت السيدة التي تأثرت لدى روايته قصته، التي كان يرويها عند الباب بصوت يمزق الأحشاء، وبسذاجة، تظهر علائم واضحة على الندم. وبالنسبة لـ «ذي الرجل الرخوة»، كانت السيدات تستحق الندم، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يعتبرهن جميعاً مسؤولات عن وضع جميع الأولاد الفقراء. وكان يبغضهن جميعاً، ويبغض أزواجهن وأولادهن، بغضاء عميقة. وكان تباهيه الكبير والوحيد تقريباً، هو إثارته لبؤس العائلات بعد السرقة، لدى تفكيرها بأن هذا الغلام الجائع الذي أطعمته كان هو الذي استطلع المنزل وعين لأولاد جائعين آخرين أماكن وجود الأشياء الثمينة.

ولكن هذه المرة، كان الأمر مختلفاً. هذه المرة، لم يترك في المطبخ مع أسماله البالية، وهو لم يترك للنوم في الباحة. لقد أعطي ملابس، وغرفة، ووجبة في غرفة الطعام. وقد تنفس كصف، كصف عجوز. وهو، أثناء تدخينه سيجارته سراً، كان يتساءل في نفسه لماذا يختبئ للتدخين. إنه لا يفهم شيئاً مما يحدث. كان وجهه مهموماً. إنه يتذكر يوم السجن، والضربات التي توجه إليه، والأحلام التي لم تكف عن مراودته، وفجأة شعر بالخوف. كان يخاف من أنه في هذا المنزل، سيعامل بطيبة، من أن أصحاب المنزل سيعاملونه بطيبة. أجل. وهو لا يعرف لماذا هو خائف. ونهض، وخرج من مخبئه، وذهب للتدخين تحت نافذة السيدة بالضبط. وهكذا سيرون أنه ولد ضال، وأنه لا يستحق الغرفة والملابس الجديدة، والوجبات في غرفة الطعام. وهكذا سوف يرسلونه إلى المطبخ، وسوف يستطيع أن يقوم بنجاح بعمله الانتقامي، وأن يغذي البغضاء في قلبه. ذلك لأنه إذا اختفت هذه البغضاء، فسوف يموت، ولن يبقى لديه أي سبب للحياة. ومرت أمام عينيه رؤى الرجل الذي يرى الجنود يتهالكون بالضرب عليه (أي على «ذي الرجل الرخوة»)، فينفجر (أي الرجل) بضحكة فظة. وهذا ما يجب أن يمنع «ذا الرجل الرخوة» دائماً من أن يرى وجهه بدون أن يثير المعمعة الطيبة. ونادرة الأب حريته تدور خانقة له، وتضامن العضلات الإضرابية لعمال الميناء حيث بادام سوف يبقى وحيداً. وبغضاؤه سوف تشملهم جميعاً، بيضاً وزنوجاً، رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء. هذا يخشى أن يكونوا بأمس طيبين نحوه.

وفي فترة بعد الظهر، وصل صاحب المنزل راؤول من مكتبه. كان محامياً شهيراً حقق ثروة من مهنته، وهو يقوم بالتدريس في كلية الحقوق، ولكنه فوق كل شيء، كان هاوي مجموعات. كان لديه رواق ممتاز من اللوحات، والعملات القديمة، والأعمال الفنية الثمينة. وفي هذه اللحظة، كان «ذو الرجل الرخوة» يتفرج على الصور

إلى حد كتف الأطفال. ويضحك في نفسه على أمثال الأبله الذي يخدعه الفرد وهم يرونه
فوق سلم صعد الدرج، ولكن بعد ذلك فوراً، جاءت الخادمة تدعو «ذا الرجل
الرخوة» وقادته إلى غرفة الدونا استير، وكان راؤول في القميص، بدون سترة، يدخن
سيجارة، وينظر [illegible] بابتسامة مرحة. ذلك لأن ملامح «ذي الرجل الرخوة»
كانت تعبر عن [illegible] لدى دخوله الغرفة

- ادخل

كان «ذو الرجل الرخوة» يترنح، ولا يعرف أين يضع يديه، وقالت له الدونا
استير بلطف

- اجلس، يا بني، ولا تخف

جلس «ذو الرجل الرخوة» على حافة كرسي، وانتظر. وراح المحامي يتفحصه،
درس وجهه، ولكن كان ذلك بعطف. وكان «ذو الرجل الرخوة» يعد أجوبته على
الأسئلة التي لا بد منها. وحكى مرة ثانية القصة التي اختلقها في الصباح، ولكن حين
بدأ يبكي بدموع غزيرة، دعاه المحامي للتوقف، ونهض متجهاً نحو النافذة. وفهم «ذو
الرجل الرخوة» أن الرجل قد تأثر، ونتيجة لهذه (أي «ذو الرجل الرخوة») هذه حملته
[illegible] في دخيلته. ولكن لأن اقترب المحامي من الدونا استير، وقبلها على
الجبين. ثم [illegible] شفتيها، وغض «ذو الرجل الرخوة» بصره. وسار راؤول إليه، ووضع
يده على كتفه وقال

- لا بأس بعد الآن. لأنك لن تعرف الجوع بعد أبداً. اذهب [illegible] اذهب والعب،
اذهب وتفرج على [illegible] هذا المساء سنذهب إلى السينما. هل تحب السينما؟

- نعم، يا سيدي

وصرفه المحامي مشيراً بيده وخرج «ذو الرجل الرخوة». لكنه رأى قبل خروجه
راؤول يقترب من الدونا استير ويقول لها

- [illegible] سوف نجعل منه رجلاً. كانت ساعة التعب، وأضاءت الأنوار،
وفكر «ذو الرجل الرخوة» في أن «فرسان الرمل» في هذه الساعة يرتادون المدينة بحثاً
عن طعام

[illegible] في السينما، حين كان الشاب [illegible] مرة على الرجل المعظم يستطيع
«ذو الرجل الرخوة» أن يصرخ كما كان يفعل في المرات التي يتمكن فيها من الدخول إلى
[illegible] لأعلى السينما «أولمبيا» أو إلى سينما «إيتابا جيبي» أما هنا، في سينما «غواراني»
الضخمة [illegible] فكان عليه أن يتابع الفيلم في صمت. وفي لحظة معينة لم يتمكن فيها

من أن تفلت منه ولو صرخة. [illegible] راؤول صحيح أن المحامي كان يبتسم، لكن
[illegible] هذه الحركة لكي لا يعود «ذو الرجل الرخوة» إلى الصفير

[illegible] صفحتوه [illegible] في [illegible] قائم تجاه دار السينما. وفي حين كان
يحتسي [illegible] المثلج، فكر «ذو الرجل الرخوة» في أنه كان يرتكب خيانة لا علاج لها
حين سأله المحامي عما يريد أن يشرب وكاد يطلب [illegible] لكنه تمالك
نفسه في الوقت المناسب، وطلب شراب [illegible]

وفي السيارة صعد المحامي إلى المقعد الأمامي لقيادة السيارة، وصعد «ذو الرجل
الرخوة» إلى المقعد الخلفي، مع الدونا استير التي كانت تدردش معه. وكانت محادثة
[illegible] على «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان عليه أن يضبط كلماته وتعابيره التي كانت
[illegible] ومنذ [illegible] قصة. وكانت الدونا استير تسأله عن أمه، وكان «ذو
الرجل الرخوة» يجيب [illegible] يستطيع [illegible] جهداً [illegible] حتى كان يخنقه
لكي لا [illegible] مرة في [illegible] وفي نهاية [illegible] في [illegible] وقادت
الدونا استير «ذا الرجل الرخوة» إلى غرفته [illegible] فوق [illegible]

- لا تخاف النوم هنا بمفردك؟

- كلا، يا سيدتي

- [illegible] فقط [illegible] فوق [illegible] معرفة التي كانت
[illegible] أوعست

- لا داعي هنا. أيتها الدونا استير فهذه معرفة هي [illegible]

وانحنت عليه وقبلته

- ليلة سعيدة، يا صغيري

خرجت. وانقفلت [illegible] ولبث «ذو الرجل الرخوة» ساكناً بلا حراك، دون أية
حركة، حتى دون أن يجيب على التحية [illegible] واضعاً يده على وجهه حيث قبلته
الدونا استير. لم يكن يفكر في شيء، ولا يرى شيئاً. لا شيء. لا في القبلة [illegible] هذه
[illegible] التي لم يسبق مثلها من قبل [illegible] لا شيء. لا [illegible] على وجهه
[illegible] حين كان الأرض [illegible] على [illegible] وأن كل شيء قد [illegible]
ولم يعد هناك [illegible] سوى [illegible] بهذه [illegible] الأمومية على وجه
«ذي الرجل الرخوة»

وإثر ذلك، كان [illegible] أحلام [illegible] ذو [illegible] الذي كان يصحبه
[illegible] «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يركض

برجله المعاقة حول الغرفة، ولكن فجأة برزت الدونا استير، والرجل ذو الصدرة، والجنود الذين يموتون وسط عمليات تعذيب ليس لها مثيل، ذلك لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يرتدي الآن برة بحار، ولكن يمسك بيده سوطاً مثل الشاب في السينما

ومرت ثمانية أيام. وقد جاء بيدرو بالا مراراً عديدة إلى أمام المنزل ليتسقط أنباء «ذي الر... خوة» الذي تأخر في العودة إلى المستودع، لقد مر أكثر من الوقت اللازم ... ليعرف «ذو الرجل الرخوة» اماكن الاشياء الثمينة الممكن نقلها، وليخرج لي من شباك ليسهل الفرار. ولكن بدلاً من أن يرى «ذا الرجل الرخوة» كان بيدرو بالا يرى الخادمة التي كانت تظن أنه جاء من أجلها. وفي أحد الأيام، وكان يحادث هذه الخادمة، أدار بيدرو بالا الحديث بكثير من البراعة، نحو «ذي الرجل الرخوة»

- السيدة التي هنا ها غلام، اليس كذلك؟

- هذا ولد صغير سنه وهو لطيف جداً

ابتسم بيدرو بالا، لأنه كان يعرف أن «ذا الرجل الرخوة» حين يريد، كان يظهر كأفضل غلام صغير في العالم. وتابعت الخادمة تقول

- انه أصغر منك قليلاً، لكنه غلام صغير انه ليس داعراً ولا فاسقاً مثلك، انت الذي بدأت بمجامعة النساء ... وكانت تضحك من بيدرو بالا قائلة

- أنت الذي تصطحب بكارتي

- لا تعوي أشياء حسنة ثم أن هذه أكذوبة

- أنا قسم على ذلك

كانت تحب أن يكون هذا صحيحاً، وهي، وإن لم تصدق ذلك، ولكن كان يروق لها أن يقوله له. ولم يكن يحس فقط أنها عشيقة لغلام، بل أنه أيضاً بعض الشيء

- تعال الليلة لأعلمك طريقة ممتعة

- هذه الليلة، عند زاوية الشارع ... ولكن قولي لي قليلاً ألا تدبرين أمرك مع الغلام الذي هنا؟

- انا لا اعرف حتى ما هو هذا الشيء. انه ... صغير، وولد مدلل. انت مجنون. أنت ترى جيداً أنه ليس من النوع الذي يروق لي

وفي مرة ثانية أفلح بيدرو بالا في رؤية «ذي الرجل الرخوة»، وكان هذا الاخير ... في الحديقة (ولم يعطِ بيدرو بالا حراسه)، وكان «ذو الرجل الرخوة» يسرح على كتاب مصور. ودهش بيدرو بالا حين رأى هذه الآنسة بطلاً من الكريمر الرمادي، وسترة حريرية. وحتى شعره كان ممرحاً. وظل بيدرو بالا فترة فاغر الفم، دون أن

يستطيع الصفير «لذي الرجل الرخوة». وأخيراً تمالك نفسه، وصفر. وسرعان ما نهض «ذو الرجل الرخوة» على قدميه، ورأى بيدرو بالا في الجانب الآخر من الشارع، وأشار إليه بأن ينتظره واجتاز البوابة، بعد أن تأكد من أن أحداً لا يحوم في تلك الأماكن

واتجه بيدرو بالا نحو زاوية الشارع وتبعه «ذو الرجل الرخوة». وحين أدركه، ازدادت دهشة بيدرو بالا أكثر أيضاً

- لعنة الله عليك! انت تفوح منك رائحة طيبة! يا «ذا الرجل الرخوة». أبدى «ذو الرجل الرخوة» هيئة منزعجة، لكن بيدرو بالا تابع قائلاً

- إنك أكثر أناقة بعشر مرات من «القط». عجباً! فإذا جئت هكذا إلى الكوخ - هكذا كان بيدرو يسمي المستودع - فسوف ينقض الآخرون عليك. إنك تبدو مثل دمية حقيقية

- لا تلح علي في الطلب. اني اتفحص الأشياء ... سيكون الأمر أطول مدة، سوف اهرب، وتستطيع أنت أن تأتي مع الآخرين

- هذه المرة، لست مستعجلاً

- ذلك لأن البضاعة مقفل عليها بصورة محكمة، هكذا قال «ذو الرجل الرخوة» كاذباً

- جهد لتدبير الأمور

... ذلك تذكر

- لقد اساء «الدحيل» التصرف. وقد كاد أن يعترف للشرطة. ولولا دون آنيها ... عطته شيئاً يشربه، ويقوي عزيمته مجدداً. ... لما عدت رأيته إنه أكثر هزالاً من ... حديدي

وعلى هذا ... استأذن للذهاب. موصياً مرة أخرى «ذا الرجل الرخوة» بأن يستعجل

عاد «ذو الرجل الرخوة» ليتمدد في الحديقة. لكنه الآن لم يعد يرى صور الكتاب. إن ما صار يراه، هو «الدحيل». كان «الدحيل» هو من أكثر الذين صطهدهم «ذو الرجل الرخوة» في الجماعة. وكان ابن اشخاص عرب، ويتكلم بلهجة غريبة وطريفة، وكان هذا يتيح المجال لسيل من السخرية من جانب «ذي الرجل الرخوة». ... لم يكن «الدحيل» قوي البنية، ولم ينجح أبداً في تكوين مكانة بين «الفرسان» ... رغم أن بيدرو بالا و «الاستاذ» قد سعوا لاعطائه الوسائل لذلك. وكان

يروق لهم أن يكون بينهم أجنبي أو شبه أجنبي. لكن «الدخيل» كان يكتفي بعمليات نشل واختلاس صغيرة، متجنباً عمليات السطو المحترفة، وكان يحلم بحقيبة بضائع رخيصة يقوم ببيعها لخدم منازل الأغنياء.

كان «ذو الرجل الرخوة» يسخر منه بلا شفقة، ويهزأ به، ويلعنه بالعامية، ويفقده الشجاعة، لكن الآن و«ذو الرجل الرخوة» مضطجع في حديقة، على العشب الناعم، مرتدياً بدلة جديدة، ومسرح الشعر ومعطراً، وكتاب صور قربه، كان يفكر أن «الدخيل» شبه ميت من الجوع، في حين أنه هو، أي «ذو الرجل الرخوة»، يأكل جيداً ويلبس ملابس جديدة، وليس فقط أن «الدخيل» قد لامس الموت، ولكن خلال هذه الأيام الثهبية، ما زال «فرسان الرمال» سيئي الملابس، وسيئي التغذية، ينامون تحت المطر في المستودع الذي لا سقف له تقريباً، أو تحت الجسور. وخلال هذا الوقت، كان «ذو الرجل الرخوة» ينام في سرير جيد، ويأكل مآكل جيدة وتدلله أيضاً سيدة تقية، وتدعوه ولدها. وأحس بأنه خائن لجماعته، كان مشابهاً لعامل الميناء الذي كان يتحدث عنه جان دادام وهو يبصق على الأرض، دائساً عليها بقدمه علامة على الازدراء. إن عامل الميناء هذا، الذي انتقل أثناء الإضراب إلى الجانب الآخر، إلى جانب الأغنياء، قد حطم الإضراب، وذهب يجمع الرجال من الخارج للعمل على أرصفة الميناء. ولم يعد أبداً أحد من عمال الميناء يصافحه ولم يعد أحد منهم يعامله كصديق. ولقد كان «ذو الرجل الرخوة» يضع استثناء في بغضه للجنس البشري، فقد كان فقط لصالح هؤلاء الأولاد الذين يشكلون «فرسان الرمال». كان هؤلاء رفاقه وصحبه، وكانوا مماثلين له، وصحبه جميع الآخرين كما كان يرى «ذو الرجل الرخوة»، وهو يحس الآن بأنه أخذ يتخلى عنهم، وأنه آخذ في الانتقال إلى الجانب الآخر. عند هذا التفكير، قام منتفضاً، وهمس: كلا، إنه لن يخونهم. قبل كل شيء كان هناك قانون الجماعة. فبين «فرسان الرمال» والذين يخونون هذا القانون يطردون من الجماعة، ولا ينتظرهم أي شيء طيب في هذا العالم. وما من أحد أبداً خان «فرسان الرمال». بالطبع لقد كاد «ذو الرجل الرخوة» أن يخون بها الجماعة لكي يتحول إلى ولد مدلل، ولكي يصبح واحداً من الأولاد الذين ينالهم أفراد الجماعة بمزاحهم ونكاتهم. كلا، كلا، إنه لن يخون «فرسان الرمال». لقد كلفه ثلاثة أيام معرفة أماكن وجود الأشياء الثمينة في المنزل. لكن للطعام وجودة الملابس، والمعرفة والأكثر من المعرفة، وجودة الطعام وحنان الدونا استير جعله يمضي حتى الآن ثمانية أيام. لقد اشتراه

هذا الجانب، كما اشترى عامل الميناء بالمال. لكنه حين وصل إلى هذه النقطة، تساءل إذا كان سيخون الدونا استير. لقد وضعت ثقتها فيه هي أيضاً، مثل «فرسان الرمال»، الذين يضعون ثقتهم في مرشدهم. لم يكن تناقضاً إلا حين يكون هناك خطأ، وكانت ترد على الخير بالخير. بيد أن «ذا الرجل الرخوة» سيخون هذا القانون. سيرد على الخير بالشر. وتذكر مرات أخرى حيث، حين كان يفر من منزل لتسهيله لعملية سطو، كان فرح عظيم يستولي عليه. وهذه المرة، لم يكن أي فرح يجيء في دخيلته. إن بغضه إزاء الجميع يتلاشى. هذا صحيح، لكنه كان يستثني أصحاب هذا المنزل لأن الدونا استير كانت تدعوه «ولدي»، وتقبله على خده. كان «ذو الرجل الرخوة» يناضل ضد نفسه. إنه يحب لو استمرت حياته هنا، على هذا النحو. ولكن ماذا سيفيد هذا «فرسان الرمال»؟ إنه واحد منهم. ولن يتمكن أبداً من أن يكف عن كونه واحداً منهم، لأنه في أحد الأيام اعتقله الجنود وانهالوا عليه بالضرب، في حين كان رجل ذو صدرة سوداء يضحك ضحكاً فظاً. وصمم «ذو الرجل الرخوة» واتخذ قراره. لكنه راح يتفحص الجدران في غرفة دونا استير. وهي التي كانت ترقبه لاحظت أنه يبكي.

ـ أأنت تبكي، يا صغيري؟

واختفت من النافذة، وجاءت إليه. وحينئذ فقط، لاحظ «ذو الرجل الرخوة» أنه كان يبكي. وجفف دموعه، وعض يده. وكانت دونا استير قد صارت قربه.

ـ هل أنت تبكي يا أوغست؟ هل حدث شيء ما؟

ـ كلا، يا سيدتي. إني لا أبكي.

ـ لا تكذب يا ولدي. إني أرى ذلك جيداً. ماذا حدث؟ هل أنت تفكر في أمك؟

واجتذبته نحوها. وجلست على مقعده، وأسندت رأس «ذي الرجل الرخوة» إلى صدرها الأمومي.

لا أمك بعد. أمك الآن لديك أم صغيرة أخرى، لا تريد سوى خيرك، وهي ستفعل كل شيء، ستحنو نحو تلك الأم التي فقدتها (وهو سيفعل لها كل شيء، سيحنو نحو الولد الذي فقدته. هذا ما سمعه «ذو الرجل الرخوة» في دخيلة نفسه).

وقبلته دونا استير على خده الذي كانت تسيل عليه الدموع.

ـ لا أمك، ولا أصحاب حرب وهم مثلك.

حينئذ انفرجت شفتا «ذي الرجل الرخوة»، وانغرق في البكاء، وبكى زمناً طويلاً مسنداً رأسه إلى صدر الأم. وفي حين كان يعانقها، ويستسلم لقبلاتها، كان يبكي

بشدة لأنه سيتخلى عنها ، وفكر من ذلك أيضاً ، لأنه سوف يسرقها وربما لن تعرف أبداً أن « ذو الرحل الرخوة » لديه احساس بأنه سوف يسرق نفسه ، كما انها تجهل أن بكاءه وتحسه كانا دعوة للمغفرة

* * *

بعد فترة لاحدث سرعة لأن راؤول صطر للقيام برحلة إلى ريو دي جنيرو لأجل أعمال قضائية مهمة وفكر « ذو الرجل الرخوة » بأنه لا توجد فرصة أفضل لأجل عملية السطو

وفي فترة بعد الظهر التي ذهب فيها ، راح يتأمل المنزل كله ، وداعب مبرلوث القط ، وتحدث مع الخادمة ، ونظر في كتاب الصور وبعد ذلك ذهب إلى غرفة دونا استير وقال لها انه سيذهب للنزهة حتى شارع كاموعونيدي وهي ، حينئذ سرت ايه بأن راؤول سيحضر له دراجة من الريو . وأنه عندئذ سوف يركبها بدلاً من السير على قدمين عبر شارع كاموعونيدي فخفض « ذو الرجل الرخوة » عينيه ، لكنه قبل أن يخرج مشى نحو دونا استير وقبلها كانت هذه أول مرة يقبلها فيها . وسببت هذه فرحاً كبيراً لها وأضافت بصوت منخفض جداً ، منتزعاً الكلمات من اعماق ذاتها

ـ أنت طيبة جداً أبداً لن أنسى

خرج ولم يعد وفي تلك الليلة نام في زاويته بالمستودع وذهب بيدرو بالا مع فريق إلى المنزل وأخذ الآخرون ، « ذي الرجل الرخوة » معجبين بملابسه ، وبشعره المسرح جيداً ، وبالعطر الذي كان يفوح من جسمه لكن « ذا الرجل الرخوة » قفص على حناق ولد ، وذهب يتقدم متذمراً إلى زاويته وبقي هناك يقرض أظافره . دون أن ينام وكان يحس بالقلق والغصة ، إلى أن عاد بيدرو بالا ، والآخرون حاملين نتاج عملية السطو وأعلن لـ « ذي الرجل الرخوة » أن عملية السطو هذه كانت أسهل عملية على الاطلاق ، وأنه لا أحد عرف بها في المنزل ، وأن الجميع واصلوا النوم ولعلهم حتى اليوم التي كانوا لم يكتشفوا السرقة بعد وكان يظهر الأشياء الذهبية والفضية

ـ غداً ، سيدفع لنا غونزاليس مالاً كثيراً لقاء هذه الأشياء الثمينة !

لكن « ذو الرجل الرخوة » غمض عينيه لكي لا يرى وبعد أن ذهب الجميع للنوم ، اقترب من « القط »

ـ هل تريد أن نعقد صفقة معي ؟

ـ ما هي هذه الصفقة ؟

ـ أعطيك هذه الملابس ، وتعطيني ملابسك

نظر إليه « القط » متعجباً بالذهول . لا شك في أن ثيابه أفضل من ثياب جميع أفراد جماعته ، لكنها كانت ملابس عتيقة ، وهي لا تساوي أبداً قيمة البدلة الجيدة في قماشها الكشمير التي يرتديها « ذو الرجل الرخوة » « إنه مريض » هكذا فكر « القط » في حين كان يخلع

تساءلني اذا كنت موافقاً ؟ وهل هذا موضع تساؤل ؟

وتبادلا الملابس وعاد « ذو الرجل الرخوة » إلى زاويته ، ودون أن ينام

في الشارع كان يتقدم الدكتور[٢٣] راؤول ، مع حارسين كان هما الجنديان نفسهما اللذان شتما « ذا الرجل الرخوة » وضرباه في السجن كان « ذو الرجل الرخوة » يركض ، لكن الدكتور راؤول كان يدل عليه بالاصبع ، فأخذه الحارسان إلى نفس غرفة السجن وكان المشهد هو المشهد الدائم الجنود الذين كانوا يلهون بجعله يركض بساقه العرجاء ، ويهالون عليه بالضرب . والرجل ذو الصدرة الذي كان يضحك ولكن هذه المرة ، في القاعة ، كانت توجد أيضاً دونا استير التي كانت تنظر إليه بعينيها الحزينين ، وتقول انه لم يعد ابنها ، وأنه لص وكانت عيناً دونا استير تجعلانه يتألم أكثر مما كانت تؤلمه ضربات الجنود ، وأكثر من ايلام ضحكة الرجل القصة

وسقط مبللاً بالعرق وفر من ليل المستودع ، وذهب نحو البحر وهو يهيم عبر الرمال

وفي اليوم التالي ، في الليل ، جاء بيدرو بالا يعطيه النقود التي كانت حصته من الغنيمة لكن « ذا الرجل الرخوة » رفضها دون أن يعطي تفسيراً واثر ذلك ، جاء « ذو الكروع الناشف » مع صحيفة تتضمن أخبار الأمياو وقرأ « الاستاذ » المقال لـ « ذي الكروع الناشف » وراح يتصفح الجريدة وحينئذ نادى

ـ يا « ذا الرجل الرخوة » ! يا « ذا الرجل الرخوة » !

هرع « ذو الرجل الرخوة » راكضاً وتراكض نحوه آخرون ، وشكلوا حلقة وأعلن « الاستاذ » قائلاً

ـ هذا يخصك ، يا « ذا الرجل الرخوة »

وقرأ الاعلان التالي في الصحيفة

(٢٣) الدكتور لهذا اللقب في البرازيل ، يشار ليس فقط إلى الاطباء ، بل يمنح هذا اللقب أيضاً للقضاة والمحامين الخ وبصورة عامة لكل رجل يراد تكريم علمه

ـ ملاحظة من المترجم ـ

بالأمس خطف من الرقم ... من شارع ... في حي «غراسا»، ولد لأصحاب المنزل. يدعى أوغست. ولا بد أنه ضاع عبر المدينة التي يكاد لا يعرفها. إن في إحدى قدميه عرجاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهو خجول جداً ويرتدي بدلة من الكشمير الرمادي. والشرطة تبحث عنه لإعادته إلى ذويه المتألمين، ولكن حتى الآن لم تعثر له على أثر. وسوف تعطي العائلة مكافأة جيدة لمن سيعطي معلومات عن الصغير أوغست، ويعيده إلى منزله.

ظل «ذو الرجل الرخوة» صامتاً. ولكن يعض على شفتيه وقال «الأستاذ»:

- إنهم لم يكتشفوا السرقة بعد.

أجاب «ذو الرجل الرخوة» أيضاً بإيماءة برأسه. وحين سيكتشفون السرقة لن يعودوا يبحثون عنه كولد ضائع. وكشر بازدراء وتكشيرة هزيلة وصاح:

- إن الشرطة تبحث عنك، يا «ذو الرجل الرخوة». إن ماماك تبحث عنك لكي ترضعك.

لكنه لم يعد يقول أي شيء لأن «ذا الرجل الرخوة» قد انقض عليه، شاهراً خنجره. ولكن يمكن بالتأكيد أن يتقرر مصير زنجي الصغير لو لم يسحبه جواو غراندي و«ذو» ... من يديه. وقد خاف باراندا او كثيراً. وعاد «ذو الرجل الرخوة» إلى زاويته موجهاً نظرة غضب إلى الجميع. وأدركه بيدرو بالا. ووضع يده على كتفه.

- إنهم يمكن أن لا يكتشفوا السرقة أبداً، يا «ذو الرجل الرخوة». وأن لا يعرفوا أي شيء عنك. ولا يجب أن تعرف.

- حين سيعودون رأؤون سوف يعرفون.

واستغرق في بكاء، وبقي جميع «فرسان الرمال» مذهولين. بين بيدرو بالا و«الأستاذ» فقط فهموا وحدهم، وهذا الأخير هز بيده علامة على العجز. وبدأ بيدرو بالا حديثاً طويلاً حول موضوع مختلف جداً. وهناك، في الخارج كانت الريح تجري على الرمال وكان هزيمها مثل شكوى ...

صباح مثل لوحة

في حين كان بيدرو بالا يستنشق نسيم الحقل كان يفكر في أنه لا شيء في العالم أفضل من أن تذهب هكذا، كما يتفق، عبر شوارع باهيا. إن بضعة شوارع فقط هي معبدة بالرصف. لكن الأكثرية الساحقة من شوارع المدينة مرصوفة بحجارة سوداء. كان ... على شارع من ... المساكن القديمة، ولم يكن أحد يستطيع أن ... كانت هذه هي حاجة رومانسية تسطر بحيء روح عبي، أو ... كانت مومساً ... عبر شرفة عتيقة جداً، مزينة بأزهار قديمة. وكانت ... سوداء ... بين الكنائس. وكانت الشمس تضرب على حجارة الطرق أو على ... حادة، وهي تضيء سطوح المنازل. وعلى شرفة صفيقة سفلية كبيرة كانت تنمو أزهار في صناديق. هذه الأزهار كانت ذات ألوان متعددة ومختلفة، والشمس ... حصتها الوامضة من الضوء. وكانت أجراس كنيسة ... في الساحل تدعو ... المؤمنات اللواتي كن ... مستعجلة. وفي وسط الطلعة، كان زنجي وحلاسي ... على أزهار ... لكن الزنجي قد ... وحيا بيدرو بالا، عند مروره الزنجي.

- كيف حالك، أيها الوامضة البيضاء؟

وأنت يا بالا؟ كيف حال هذا الادعاء الصغير؟

لكن حلاسي كان قد القى الأزهار ... وكان الزنجي مهتماً كثيراً ... وتابع بيدرو بالا طريقه. كان «الأستاذ» يرافقه. وكان وجهه النحيف ملقى إلى الأمام، وكأنه من ... له فهم الطلعة. لكنه كان ... في عمق النهر. والتفت بيدرو بالا نحوه، وفاحت ... وكانت المدينة مبتهجة، مغمورة بالشمس. ... ثمة أيام تعيد ... هكذا، كان يفكر بيدرو بالا، الذي ... هو أيضاً للبهجة. كان يصفر بقوة، ويربت بمرح على كتف «الأستاذ». وراح كلاهما يضحكان، وبعد قليل، تحول الضحك إلى ... شديد ... أنهما لم يكن في جيوبهما سوى بضعة قروش قليلة، كانا يرتديان الأسمال البالية، ولا يعرفان ماذا سيأكلان. لكن روحيهما

كانتا مليئتين بجمال النهار وبحرية الانطلاق في شوارع المدينة. كانا يسيران ضاحكين بلا سبب، وقد وضع بيدرو بالا ذراعه على كتف «الاستاذ». ومن حيث كانا، كان باستطاعتهما رؤية السوق ومرفأ «السفن الشراعية»، بل وحتى المستودع القديم حيث ينامان. استند بيدرو بالا إلى جدار الطلعة وقال لـ «الاستاذ»:

ـ عليك أن تصنع لوحة من هذا... إنه جميل جداً.

اقفلت هيئة «الاستاذ»:

ـ أعرف جيداً أن هذا لن يحصل أبداً...

ـ ماذا؟

ـ هناك مرات احفر فيها دماغي...

وراح «الاستاذ» يتأمل المياه هناك، في أسفل، والسفن الشراعية التي تشبه الدمى، والرجال الصغار جداً الذين يحملون أكياساً على ظهورهم.

وتابع كلامه بصوت حاد، وكأن شخصاً ما قد ضربه، قال:

ـ أنوي أن أصور يوماً كثيراً من الأشياء هنا.

ـ لديك وسائل ولو أنك دخلت المدرسة.

ـ ولكن هذا لا يمكن أبداً أن يكون شارعاً بهيجاً، لا...

لم يكن يبدو أن «الاستاذ» قد سمع مداخلة بيدرو بالا. والآن، كانت عيناه تضيعان في البعيد، وبدا أكثر ضعفاً أيضاً.

ـ لماذ؟

كان بيدرو بالا مذهولاً.

ـ أفلا ترى أن كل شيء جميل؟ كل شيء بهيج.

وأشار بيدرو بالا إلى سطوح المدينة السفلى:

ـ هناك توجد ألوان أكثر مما في قوس قزح...

ـ هذا صحيح... ولكن اذا ألقيت نظرة على الناس... بدا لك كل شيء حزيناً ولست اتكلم على الاغنياء. أنت تعرف هذا جيداً. إنني أتحدث عن الآخرين، عن عمال الموانيء وعن رجال السوق، أنت تعرف... جميعاً بهيئة الجائعين، لا أعرف حتى أن افسر فكرتي. هذا شيء غريب احس به...

لم يعد بيدرو بالا مذهولاً.

ـ لأجل هذا قاد جان دادام مرات عديدة اضرابات على ارصفة الميناء. وهو يقول أن الاشياء سوف تتغير في يوم من الايام. وسينقلب كل شيء.

ـ لقد سبق لي أن قرأت هذا في كتاب... كتاب لجان دادام. ولو كنت قد تعلمت في المدرسة، لكان ذلك أفضل. كما تقول. في أحد الأيام، سأكون قد رسمت كثيراً من اللوحات الجميلة. نهار جميل، وناس سعداء يسيرون، ويضحكون، ويتحابون، مثل ناس ناراريه، أليس كذلك؟ حسناً، ولكن أين هي المدرسة؟ أنا أريد تماماً القيام برسم مفعم بالمرح، يكون النهار فيه جميلاً، ويكون كل شيء في هذه المرحلة جميلاً. أما أن يكون الناس حزناء، فهذا لا أريده، كلا. إنني أود أن اصنع شيئاً بهيجاً.

ـ من يدري أنه من الأفضل أن يصنع شيء كما تصنع أنت. فهذا يمكن أن يكون جميلاً، وأكثر تأثيراً.

ـ ماذا تعرف عن ذلك؟ وماذا أعرف أنا؟ نحن لم تذهب ابداً إلى المدرسة. إني أرغب في رسم صورة الناس، وصورة الشوارع، لكنني لم أذهب أبداً إلى المدرسة، وهناك أشياء كثيرة لا أعرفها...

هدأ «الاستاذ» قليلاً، ونظر إلى بيدرو بالا الذي كان يصغي اليه، ثم تابع كلامه قائلاً.

ـ هل سبق لك أن ألقيت نظرة على «مدرسة الفنون الجميلة»؟ انها مدهشة جداً، يا عصفي العتيق. لقد تسللت اليها يوماً، ودخلت إلى احدى قاعاتها واختبأت. وكانوا جميعاً هناك، مرتدين بلوزات بيضاء، ولم يشاهدوني. وكانوا يرسمون امرأة عارية، آه لو كنت استطيع يوماً...

ظل بيدرو بالا ساهماً. ونظر إلى «الاستاذ» وكأنه، أي بيدرو، كان يفكر. ثم قال، بلهجة جدية:

ـ هل تعرف كم يكلف ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ تكاليف المدرسة؟ والاستاذ؟

ـ ما هي هذه القصة؟

ـ سوف نشترك في الدفع، سندفع لأجل دخولك المدرسة...

راح «الاستاذ» يضحك.

ـ إنك لا تدرك المسألة. هناك تعقيدات كثيرة... لا يمكن، كلا. توقف عن قول حماقات.

ـ يقول جان دادام أننا سوف نستطيع يوماً الذهاب إلى المدرسة...

وعادا يسيران. وبدا أن « الاستاذ » لم يعد يحس ببهجة هذا النهار ـ كما لو أن هذا النهار ابتعد، بعيداً جداً عنه. ولطمه بيدرو بالا:

ـ في يوم من الأيام، أيها الاخ العجوز، سوف تضع كومة من الرسوم في قاعة شارع التشيلي. بدون مدرسة، وبدون أي شيء. لا يوجد واحد من طلاب مدرسة الفنون يرسم الوجوه مثلك... أنت، من هذه الناحية، متفوق...

استغرق « الاستاذ » في الضحك. وضحك بيدرو هو أيضاً:

ـ وسوف ترسمني، أليس كذلك؟ وستضع اسمي في أسفل الصورة، هل ستضعه؟ الفارس بيدرو بالا، الفحل، المقدام.

واتخذ وضع مصارع، ماداً ذراعه. وضحك « الاستاذ » وضحك بيدرو هو أيضاً. وسرعان ما انفجر ضحكهما كالشظايا. ولم يهدأ إلا للاختلاط بجماعة من المتسكعين الذين تحلقوا حول عازف قيثار. كان الرجل يعزف ويغني لحناً من مدينة باهيا.

حين قالت لي وداعاً

جعلت قلبي صلباً

توقفا. وبعد قليل، راحا يغنيان مع الرجل. ومعهم كان الجميع يغنون. كانوا صيادين، ولصوصاً، وعمال موانىء، بل كانت هناك مومس تغني هي أيضاً، وكان الرجل صاحب القيثار منصرفاً تماماً إلى موسيقاه، بل وحتى لم يكن يرى أحداً.

ولو لم يكن الرجل قد نهض ليمضي في طريقه، مستمراً في العزف على القيثار، ومغنياً، لكانا نسيا متابعة طريقهما نحو المدينة العالية. لكن الرجل انصرف، حاملاً معه بهجة الموسيقى. وتفرقت الجماعة، ومر بائع صحف، منادياً على صحف الصباح. وتابع « الاستاذ » وبيدرو بالا في صعود الطلعة، ومن ساحة « المسرح » صعدا شارع « التشيلي ». وسحب « الاستاذ » الطبشورة من جيبه، وجلس على الرصيف، وبقي بيدرو إلى جانبه. وحين رأيا الشاب والفتاة قادمين، بدأ « الاستاذ » يرسم. وحقق رسماً، بأسرع ما يمكن. وكان الحبيبان قد اقتربا كثيراً فأخذ « الاستاذ » حينئذ يرسم ملامح وجهيهما. كانت الفتاة تبتسم، لا شك في أنهما خطيبان. لكنهما كانا مستغرقين في حديثهما بحيث لم يلاحظا الرسم. وتوجب أن يقترب بيدرو بالا نحوهما:

ـ لا تسحق صورة الآنسة، يا سيدي...

نظر الرجل إلى بيدرو بالا، وكاد يجيبه بوقاحة، حين لاحظت الفتاة رسمة « الاستاذ »، ولفتت نظر الشاب اليها.

ـ ما أجمل هذا..

وراحت تصفق مثل طفلة قدمت لها دمية.

ألقى الشاب نظرة وابتسم وتحول نحو بيدرو بالا:

ـ هل انت الذي رسمت هذا، يا صغير؟

ـ بل أنه صديقي هذا، الرسام « الاستاذ ».

كان « الاستاذ » يضيف بعض اللمسات إلى شارب الرجل، الانيق جداً. ثم راح يكمل رسم وجه الفتاة. وهي حينئذ اتخذت وضع من يجري تصويره، وضحك الخطيبان معاً. ثم تعلقت الفتاة بزند حبيبها.

وأخرج الرجل محفظته، وألقى قطعة نقود من فئة الالفي ريس. التقطها بيدرو بالا على الطائر. وتابعا طريقهما. وبقي الرسم وسط الرصيف، وقد لاحظته عن بعد بعض الاوانس، العائدات من السوق، وقالت احداهن:

ـ لنمض بسرعة، لأن هذه الصورة، هناك، تبدو لي انها اعلان عن فيلم جديد لماركور. ويظهر أنه شاب جميل جداً.. وهو قوي للغاية أيضاً.

وسمع بيدرو بالا و « الاستاذ » ما قالته الفتاة، وقهقها ضاحكين. وسارا، يتأبط كل منهما خصر الآخر، يتابعان طريقهما عبر حرية الطرقات.

توقفا من جديد امام قصر الحكومة تقريباً. كان « الاستاذ » ينتظر، والطبشورة بيده، أن يخرج « زبون أبله » من حافلة الترام. وكان بيدرو بالا يصفر إلى جانبه، عما قريب سوف يملكان النقود الضرورية لدفع ثمن غداء جيد، وأيضاً لشراء هدية لـ « كلارا »، صديقة « حبيب الله الطيب » التي في هذا اليوم عيد ميلادها.

اعطت عجوز قصيرة فلساً ثمن رسمها. وكانت هذه العجوز قبيحة وقد احترم « الاستاذ » قبحها عبر الرسم. ولاحظ بيدرو بالا قائلاً:

ـ لو أنك رسمتها بصورة أجمل وأرق، لكانت اعطتك المزيد.

جعل « الاستاذ » يضحك. هكذا مرت فترة قبل الظهر، وكان الاستاذ يرسم وجوه الذين يمرون في الشارع. وبيدرو بالا يلتقط قطع النقود الفضية أو النيكلية، التي كانت تلقى لهما. كانت الساعة تعلن الثانية عشرة ظهراً حين ظهر رجل يدخن بمبسم سيجارة يبدو أنه ثمين جداً. وركض بيدرو بالا يبلغ « الاستاذ » منبهاً.

ـ ارسم صورة هذا الابله فهو يبدو غنياً جداً.

وشرع « الاستاذ » يرسم وجه الرجل النحيف، ومبسم السيجارة الكبير جداً، وشعر الرجل المجعد، الذي يبرز خارج القبعة. وكان الرجل يحمل أيضاً كتاباً بيده، وقد ألت

« بالاستاذ » رغبة لا يمكن مقاومتها في رسم الرجل وهو يقرأ كتابه . كاد الرجل يبتعد فاستلفت بيدرو بالا انتباهه :

- انظر إلى صورتك ، يا سيدي .

سحب الرجل مبسم السيجارة الطويل من فمه ، وسأل بالا :

- ماذا قلت يا ولدي ؟

أشار بيدرو بالا إلى الرسم الذي كان يعمل عليه « الاستاذ » . كان الرجل يبدو جالساً (رغم أنه لم يكن هناك كرسي ، ولا ما شابه ، كان جالساً في الهواء) يدخن بمبسم السيجارة ويقرأ في كتابه . وكان الشعر المجعد يتطاير خارج القبعة . تفحص الرجل الرسم بانتباه ، وجعل يتأمله من زوايا مختلفة ، لكنه لم يكن يقول شيئاً . وحين اعتبر الاستاذ أن العمل قد انتهى ، سأله الرجل :

- أين تعلمت فن الرسم ، يا عزيزي ؟
- ليس في أي مكان .
- ليس في أي مكان ؟ وكيف ذلك ؟
- هذا مع ذلك صحيح ، يا سيدي ..
- وكيف ترسم أنت ؟
- أنا أرغب في الرسم ، وأوفق ، فأرسم .

بدا الرجل غير مصدق . لكن امثلة أخرى بلا شك مثلت في ذاكرته :

- هل تعني القول انك لم تتعلم فن الرسم أبداً ؟
- أبداً ، كلا ، يا سيدي .

وأضاف بيدرو بالا . أستطيع أن أؤكد ذلك ، فنحن نسكن معاً ، وأنا اعرف ذلك جيداً .

- اذن ، فهذه موهبة حقيقية .. هكذا همس الرجل .

وعاد يتفحص الرسم ، وسحب نفخة طويلة من مبسم سيجارته . وكان الولدان ينظران إلى مبسم السيجارة مسحورين .

وسأل الرجل « الاستاذ » .

- لماذا رسمتني جالساً وأنا أقرأ كتاباً ؟

حك « الاستاذ » رأسه ، كما لو أنه كان من الصعب الاجابة . وأراد بيدرو بالا الكلام ، لكنه كان متأثراً ، ولم يقل شيئاً . وفي النهاية ، أوضح « الاستاذ » قائلاً

- فكرت أن هذا يناسبك بصورة أفضل

وحك رأسه مجدداً .

- لكنني لست اعرف حقاً لماذ ؟

وهمس الرجل بصوت أكثر انخفاضاً : هذه موهبة حقيقية .. قال ذلك بهيئة شخص حقق اكتشافاً .

كان بيدرو بالا ينتظر النقود لا سيما وأن الحارس كان يراقبهم بحذر وريبة . وكان « الاستاذ » يرمق مبسم سيجارة الرجل ، الطويل (أي المبسم) ، الموشوم ، وهو تحفة رائعة ، لكن الرجل تابع قائلاً .

- أين تسكن ؟

لم يعط بيدرو بالا وقتاً « للاستاذ » لكي يجيب . وكان هو ، أي بيدرو ، الذي تكلم :

- نحن نقطن مدينة القش ..

دس الرجل يده في جيبه ، وسحب منها بطاقة زيارة :

- هل تعرف القراءة ؟
- أجل نحن نعرف القراءة ، يا سيدي .
- هذه البطاقة تحمل عنواني وأريد أن تاتي وتسأل عني ولعلني استطيع أن أفعل شيئاً من أجلك .

تناول « الاستاذ » البطاقة . وسار الحارس نحوهم . وبيدرو بالا استأذن للذهاب .

- إلى اللقاء يا دكتور .

وكاد الرجل أن يسحب محفظته ، لكنه فاجأ نظرة « الاستاذ » إلى مبسم السيجارة فألقى منها السيجارة ، وقدم المبسم للولد .

- هذا من أجل صورتي ، تعال وزرني في منزلي .

لكن الولدين انحدرا بسرعة نحو شارع « التشيلي » ، لأن الحارس كان قد وصل اليهما تقريباً وكان الرجل ينظر دون أن يفهم ، حين سمع صوت الحارس :

- هل سرقا منك شيئاً ، يا سيدي ؟
- كلا ، لماذا ؟
- لأنه ، نظراً لأن هذين اللصين كانا قربك ...
- إنهما ولدان ، ثم إن احدهما أظهر استعداداً ممتازاً للرسم

رد الحارس : - إنهما لصان وهما من عصابة « فرسان الرمال » .

- « فرسان الرمال » ؟ هكذا سأل الرجل وهو يجهد لكي يتذكر . لقد سبق أن قرأت شيئاً في هذا الصدد ألا يتعلق الأمر بأولاد مشردين لقطاء ؟

- لصوص، نعم، هكذا هم.

انتبه، يا سيدي، حين يقتربون منك. وأنظر إذا لم تكن قد فقدت شيئاً ما...

أشار الرجل بالنفي. ونظر إلى ناحية الشارع. ولكن لم يبق اي اثر للغلامين. وشكر الرجل الحارس، مؤكداً مرة أخرى أنه لم يسرق منه شيء، ونـزل في الطـريـق وهـو يهمس:

- هكذا نفقد فنانين كباراً. وهذا الصبي يمكن أن يصبح رساماً عظيماً!

كان الحارس يتأمل في الرجل. وإثر ذلك علق قائلاً لازرار بزته:

- محق تماماً من يقول أن هؤلاء الشعراء ممسوسون، فاقدوا العقل...

كان «الاستاذ» ينظف مبسم السيجارة. وكانا قد وصلا إلى خلفية ناطحة سحاب، يوجد فيها (أي الخلفية) مطعم ممتاز. وكان بيدرو بالا يعرف كيف يحصل من الطباخ على بقايا الطعام. ووقفا ينتظران طعامهما في الشارع الخالي من المارة. وبعد أن اكلا، قدم بيدرو بالا السجائر، وكان «الاستاذ» يتأهب للتدخين بمبسم السجارة، الذي اعطاه الرجل له. وسعى لتنظيفه.

- الحيوان نحيف مثل العصا. ويمكن أن يكون مسلولاً...

ونظراً لأن «الاستاذ» لم يجد لأجل تنظيف مبسم السيجارة شيئاً أفضل من بطاقة زيارة الرجل. فقد فتلها وأدخلها في مبسم السيجارة، وحين انتهى من تنظيفه، رمى الورقة في الشارع. وسأله بيدرو بالا:

- لماذ لا تحتفظ بها؟

- ولأي شيء؟

واستغرق «الاستاذ» في الضحك. وجاراه بيدرو بالا وملأت ضحكاتهما الشارع فترة. كانا يضحكان هكذا، بدون سبب، لمجرد متعة الضحك.

لكن بيدرو بالا استعاد جديته:

- كان يبدو أن الرجل قادر تماماً على مساعدتك لتصبح رساماً...

وتناول البطاقة وقرأ اسم الرجل:

وقال: - عليك الاحتفاظ بها، فمن يدري؟

خفض «الاستاذ» رأسه:

- كف عن البلاهة، يا بالا. انت تعرف جيداً أنه لا يظهر من وسطنا إلاّ لصوص... ومن ترى يمكن أن يهتم بنا؟ من؟ لا شيء سوى اللصوص، لا شيء سوى اللصوص...

كان صوته يرتفع عالياً؛ وأصبح الآن يصرخ في حقد.

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب، وتركت يده البطاقة التي سقطت في الساقية. والآن م يعودا يضحكان، بل أصبحا حزينين وسط بهجة هذا الصباح المشمس، هذا الصباح المشابه للوحة رسام من «الفنون الجميلة».

كان عمال يمرون ذاهبين إلى عملهم، بعد فطور الفقراء؛ كان هذا هو كل ما يريانه، كل ما توصلا إلى رؤيته في ذلك الصباح.

* * *